ياسمينة خضرا

ليلة الريّس الأخيرة

'من أكثر الروايات إثارة'
France 24

رواية

ترجمة
أنطوان سركيس

دار الساقي

ياسمينة خضرا

ليلة الريّس الأخيرة

ترجمة

أنطوان سركيس

دار الساقي

إن شئت سلوك
طريق السلام النهائي
ابتسم للقدر الذي يصفعك
ولا تصفع أحدا.

عمر الخيام

مدينة سِرت، القطاع رقم ٢

ليلة ١٩ – ٢٠ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠١١

حين كنت صغيراً كان خالي يصطحبني أحياناً إلى الصحراء، فهي في نظره مطهرٌ للروح أكثر منها مجرد عودةٍ إلى الجذور.

كنت آنذاك أصغر من أن أدرك ما كان يسعى إلى ترسيخه في ذهني، لكني كنت أجد متعةً كبرى في الإصغاء إليه.

كان خالي شاعراً من دون أمجادٍ ولا ادّعاءات. بدويٌّ مؤثّرٌ بتواضعه، لم يكن يطلب سوى نصب خيمةٍ في ظل شجرة والإصغاء إلى صوت الريح وهي تنزلق على الرمال بخفة ظلّ.

كان لديه حصانٌ بديعٌ ذو سمرةٍ داكنةٍ ضاربةٍ إلى الحمرة، وكلبان سلوقيان في تأهّبٍ دائم، وبندقيةٌ قديمةٌ لصيد الوعول، وكان أمهرَ من نصب الأفخاخ لحيوانات اليربوع التي تُصاد لمنافعها الطبية، إضافةً إلى الضبّ الذي يبيعه في السوق بعد أن يحشوه بالقشّ ويزيّنه.

مع هبوط الليل كان خالي يوقد النار في العراء، ثم يستسلم لأحلامه بعد أن يتناولَ وجبةً خفيفةً مع كوبٍ من الشاي شديد الحلاوة. وكانت لحظةً مباركةً بالنسبة إليّ، حين أراه متّحداً بالصمت وعراء منبسطات الحصى والصخور.

كان يتهيأ لي أحياناً أن روحه حين تنفصل عن جسده تتركني مع رفيقٍ كالفزّاعة جامدٍ كقربة جلد الماعز المتدلية عند باب الخيمة. كنت أشعر بنفسي وحيداً وسط ذلك العالم، ويعتريني خوفٌ مفاجئ من أسرار الصحراء التي تلتفّ حولي كزمرةٍ من الجنّ، فكنت أهزّه بأطراف أصابعي لأعيده إليّ، فيؤوب من غيبوبته بعينين متّقدتين ويبتسم لي. لن أعرف ما حييت أجمل من تلك الابتسامة، لا على وجوه النساء اللواتي كنت "أجلّهنّ" ولا على وجوه جلسائي الذين ربّيتهم على تقديري. كان خالي رجلاً متحفظاً، شبهَ منزوٍ، حركاته بطيئة وانفعالاته رصينة، وكان كلامه بالكاد يُسمع، ومع ذلك كان إذا توجّه إليّ بالكلام يتردّد صوته في حناياي كالنشيد. كان يقول لي، وعيناه تائهتان في بريق السماء، إن لكل إنسانٍ طيّب على هذه الأرض نجمةً فوق في السماء. طلبت إليه أن يدلّني على نجمتي فأشار بإصبعه إلى القمر بلا تردد، كما لو أن الأمر بديهي. منذ ذلك الحين وعيناي تلمحان القمر بدراً كلما رفعتهما إلى السماء. في الليالي جميعها. إنه بدري أنا. لا خمش فيه، ولا يعتريه احتجاب. ينير دربي. بهيٌّ بحيث أنّ ما من سحرٍ يدانيه. مشعٌّ إلى درجة أنه يحجب الكواكب المحيطة. ضخمٌ بحيث يكاد لا يُرى سواه في ذلك المدى اللامتناهي.

كان خالي يقسم بأنّي الولد المبارك في عشيرة الغوص الذي سيعيد إلى قبيلة القذاذفة ملاحمها المنسية ومجدها التليد.

هذا المساء، وبعد ثلاثة وستين عاماً، يبدو لي أن في سماء سِرت نجوماً أقلّ. ومن بدري أنا لم يتبقَّ سوى شكل باهت أكبر بقليل من قلامة ظفر. كل الحكايات العاطفية تختنق الآن

وسط الدخان المتصاعد من البيوت المحترقة، فيما الهواء المشبع بالغبار ورائحة البارود يتلاشى ببؤس وسط عصف القذائف.

الصمت الذي كان في ما مضى يهدهد روحي بات اليوم يحمل شيئاً من الهول، وشظايا القذائف، التي تمزّق أطرافه بين الحين والحين، تجهد في مناوشة أسطورةٍ لا تنال منها الأسلحة، عنيت بها نفسي، أنا، الأخ القائد، البصير المعصوم عن الخطأ، المولود من معجزة، الذي يراه الناس غريب الأطوار، والذي يقف منتصباً كمنارةٍ وسط بحرٍ هائج ماسحاً بذراعه المضيئة الظلمات الغدّارة وزبد الأمواج الهائجة.

سمعت واحداً من حراسي المتحصنين بالظلمة يقول إننا نعيش الآن عصر "ليل الشك" ويتساءل إن كان الفجر سيعيدنا مجدداً إلى بريق الأضواء أم يقذف بنا وقوداً للهب الحطب المشتعل.

كلامه أغاظني، لكني لم أطبّق عليه ما يقتضيه النظام. لم أجد ذلك ضرورياً. لو كان لديه القليل من الإدراك لكان امتنع عن التلفّظ بمثل تلك التجديفات، فما من إهانة أسوأ من الشك وأنا حاضر. استمراري على قيد الحياة دليلٌ على أنّ ما من خسارة قد حلّت.

أنا معمّر القذافي. هذا وحده من شأنه تعزيز الإيمان.

أنا الذي بواسطته يأتي الخلاص.

لا أخشى الأعاصير ولا حالات التمرد والعصيان.

تلمّسوا قلبي إذاً، تجدوه يضبط الحركة المحسوبة لتشتّت الخونة...

إنّ الله إلى جانبي!

أليس هو من اصطفاني من بين الرجال من أجل مقاومة القوى العظمى وشراهتها المفرطة إلى التسلّط والهيمنة؟ لم أكن سوى ضابطٍ شابٍّ متحرّرٍ من الأوهام لا تتعدّى صرخته حدود شفتيه، لكني تجرأت على القول "لا" للأمر الواقع، وأن أصيح "كفى!" لكل التعديات، وقلبت مجرى القدر كمن يقلب الأوراق التي لا يريد استخدامها. كانت فترة يقطع فيها السيف كلّ رأس يتجاوز الحدّ، بلا دعاوى قضائية ولا إشعارات. كنت أعي الأخطار وتصديت لها بجسارة، موقناً أن القضية العادلة يجب الدفاع عنها لأن ذلك هو الشرط الأساسي لكي أستحق الوجود.

لأن غضبي كان سليماً وعزمي مشروعاً، رفعني القدير فوق الرايات والأناشيد من أجل أن يراني العالم كله ويسمعني.

أرفض أن أصدّق أن الصليبيين يرسمون نهايتي، أنا المسلم المتنوّر الذي انتصر دوماً على الفضائح والمؤامرات والذي سيكون حاضراً حين ينجلي كلّ شيء. ما أتصدّى له اليوم – هذا التمرّد المدبّر، وهذه الحرب المُحكمة التي تُشنّ لتشويه أسطورتي – ليس سوى دليل إضافي على سلامة الطريق التي أتبعها. أليست هذه التجارب هي التي تصنع الآلهة؟

سأخرج من هذه الفوضى أقوى من أي وقتٍ مضى، كطائر الفينيق الذي ينبعث من رماده. صوتي يمضي أبعد ممّا تبلغه الصواريخ الباليستية. سأُخرس الأعاصير بمجرد إشارةٍ من إصبعي إلى قبيلتي.

أنا معمّر القذافي، الأسطورة التي تجسّدت رجلاً. إن كان ثمة نجوم أقلّ هذا المساء في سماء سرت، وقمري يبدو رقيقاً كقلامة ظفر، فلكي أبقى الإشراقة الوحيدة التي يُعتدُّ بها.

ليقذفوني بصواريخهم جميعها، فلن أرى فيها سوى ألعابٍ نارية احتفاءً بي. ليدكّوا الجبال، فلن ألمح في ركامها سوى صخب صيحات الجماهير الهادرة حولي. ليطلقوا على ملائكتي الحارسة كلّ شياطينهم القديمة، فما من قوة شريرة ستثنيني عن رسالتي. فقد كان مكتوباً، حتى قبل أن تستقبلني قرية قصر أبو هادي بين أحضانها، أنني سأكون ذلك الذي سيثأر للإساءات في حق الشعوب المضطهدة عبر إخضاع الشيطان وأتباعه.

– أيها الأخ القائد...

شهاب مشتعل يعبر السماء... وهذا الصوت! من أين يأتي؟

سرت في جسدي ارتعاشة من الرأس حتى أسفل القدمين. مشاعر متضاربة هزّت كياني. هذا الصوت...

– أيها الأخ القائد...

التفتُّ. كان الخادم هو الواقف جامداً من فرط التهيّب أمام فتحة الباب الذي كان مدخل غرفة جلوس سعيدة.

– ماذا؟

– عشاؤك جاهز يا سيدي.

– جئني به إلى هنا.

– من الأفضل أن تتناوله في القاعة المجاورة. لقد سددنا النوافذ وأضأنا الشموع. أقلّ ضوء هنا قد يشي بوجودك فلربما كان هناك قناصة في البنايات المواجهة.

تقدّمني الخادم إلى الغرفة المجاورة. وعلى ضوء الشموع، الذي تُضاعف الستائر المسدلة على النوافذ اضطرابه، زادني المكان اكتئاباً. خزانة ملقاة على جنبها، زجاجها مكسور، ومقعد تغطيه طنافس بارزة الأحشاء. جواربر محطّمة ترقد هنا وهناك. وعلى الحائط صورة ربّ عائلة مهيضة الجناح، مخترقة بالرصاص.

ابني معتصم هو الذي يتولّى مسؤولية الدفاع عن سِرت، وهو الذي اختار مقرّاً عاماً لجنودي مدرسةً مهجورةً في قلب القطاع رقم ٢. العدو يتخيّلني قابعاً في مكانٍ ما من قصرٍ محصّن، لعجزي عن التكيّف مع قسوة الظروف البدائية، ولن يخطر في باله أن يطلبني في مثل هذا المكان البائس. هل غاب عنه أنني البدويّ، سيّد الوضعاء وأوضع الأسياد، الذي يمكنه أن يجد الراحة في الزهد والرفاهية على مقعدٍ من رمل؟ صغيراً عرفت الجوع بسروالٍ مرتّقٍ ونعلٍ مثقوب. ولكم تجوّلتُ حافي القدمين فوق الحصى الملتهب. كان البؤس بيئتي، لم أكن أتناول من الطعام سوى وجبة واحدة من أصل اثنتين، الطعام نفسه دائماً المؤلف من سيقان النباتات حين ينفد الأرزّ. في الليل، وركبتاي ملتصقتان ببطني تحت بطّانيتي، كنت أحلم أحياناً بفخذ دجاج يسيل له لعابي. إن كنت قد عشت في ما بعد في العزّ، فلكي أدوس عليه كي أثبت أنّ كلّ ما له سعرٌ لا يستحقّ أن يقدّس، وأنّ ما من كأسٍ تستطيع أن ترفع جرعة نبيذٍ إلى مرتبة الشراب السحري. سواء في الخرق البالية أو في ثياب الحرير، فلن نكون أبداً سوى أنفسنا... وأنا القذافي، السيد، سواء جالساً على عرش أو على حجرٍ من الأحجار التي تُحدّد عليها مسافات الطرق.

لا أعرف لمن هذا المقرّ الملاصق للمدرسة حيث أقيم منذ أيام. قد يكون لواحدٍ من مواطني الأوفياء، وإلاّ كيف نفسّر هذا الخراب الذي حلّ به. آثار التدمير حديثة العهد لكنّ البناء لا يوحي إلاّ بالخراب. مخرّبون اقتحموا هذا المكان، فنهبوا الأغراض الثمينة ودمّروا ما لا يستطيعون حمله. الخادم وجد مشقّةً في نفض الغبار عن المقعد وتجهيز طاولة تليق بي. مدّ عليها الأغطية ليخفي "جروحها". على طبقٍ لا أدري من أين جاء به صحنٌ من الخزف يحوي ما يشبه وجبة طعام: لحمٌ معلّب وهلامٌ مقطّع بعناية وشريحةٌ من جبنٍ مطبوخ وقطعٌ من كعك العسكر ودوائر من شرائح الطماطم وبرتقالة مقطّعة تسبح في عصارتها في قعر الإناء. المؤونة لم تعد تفي بالحاجة ولم تعد كافية لإطعام حرسي الجماهيري.

دعاني الخادم إلى الجلوس على المقعد ووقف منتصباً قبالتي. رصانته كانت ستبدو مثيرةً للسخرية وسط هذا الركام المحيط لو لم تكن تلك الملامح على قسمات وجهه الأسمر جديرةً بقسَم الجندية المنيع. هذا الرجل يحبني أكثر من أيّ أحدٍ آخر في العالم، وهو مستعدّ لبذل نفسه في سبيلي.

– ما اسمك؟

فاجأ سؤالي الرجل فانتفضت جوزة آدم في عنقه الخشن.

– مصطفى، أيها الأخ القائد.

– وكم عمرك؟

– ثلاثة وثلاثون عاماً.

– ثلاثة وثلاثون عاماً، ردّدت تأثراً بعمره الطري. كنت في مثل سنّك لكن منذ زمنٍ بعيد... بعيد إلى درجة أني أكاد لا أتذكره.

لم يدرِ الخادم إن كان عليه أن يقول شيئاً أم يكتفي بالصمت، فبدأ بتنظيف محيط الطبق.

– مصطفى، منذ متى أنت في خدمتي؟

– منذ ثلاثة عشر عاماً يا سيدي.

– لا أذكر أني رأيتك سابقاً.

– إنني أحلّ محلّ المتغيبين... أعتني بموقف السيارات.

– وأين ذهب الرجل الآخر، الأحمر الشعر؟ ما كان اسمه؟

– ماهر.

– لا، ليس ماهر. الأصهب الضخم ذاك الذي فقد والدته في حادث تحطّم طائرة.

– صابر؟

– نعم. صبري. لم أعد أراه.

– لقد مات يا سيدي. منذ شهر. سقط في كمين. حارب كالأسد. حتى إنه قتل عدداً من مهاجميه قبل أن يسقط. أصابت مركبته قذيفة ولم نتمكّن من استعادة جثته.

– وماهر؟

أحنى الخادم رأسه.

– هل مات هو أيضاً؟

– لقد فرّ منذ ثلاثة أيام. اغتنم فرصة عملية التموين ليلتحق بالعدو.

– لقد كان فتىً طيباً، مؤنساً وجلوداً. نحن لا نتحدث بالتأكيد عن الشخص نفسه.

– كنت برفقته يا سيدي حين تراجعت شاحنتنا لدى مشاهدتنا حاجزاً للمتمرّدين. قفز ماهر من الشاحنة وهرول في اتجاه الخونة رافعاً يديه. أطلق الرقيب النار عليه لكنه لم يصبه. قال الرقيب إن ماهر هالك على أيّ حال، فالمتمردون لا يحتفظون بسجناء. يعذّبونهم قبل أن يعدموهم. ماهر الآن في مقبرة جماعية تتعفّن جثته.

لم يجرؤ على رفع رأسه.

– من أيّ قبيلة أنت يا بني؟

– ولدت في... بنغازي يا سيدي.

– بنغازي! كل شيء إلا هذا الإسم. أشعر برغبة في تقيّؤ فيضانٍ هائل يمحو هذه المدينة الملعونة والقرى المحيطة بها. من هناك انطلق كل شيء. وباء مدمّر استولى على النفوس كشيطان. كان عليّ أن أبيدها منذ اليوم الأول وأطارد المتمردين فيها "زنقة زنقة، ودار دار"، سالخاً جلود المفسدين بينهم في الساحات العامة ليستر كل ذي نيّة سيّئة نواياه كي لا يلقى المصير نفسه.

لمح الخادم الغضب يتفجّر في داخلي. لو أنّ الأرض انشقّت فجأةً تحت قدميه لما تردّد لحظةً في إلقاء نفسه فيها.

– أنا شديد الأسف يا سيدي. لكم تمنيت لو أني ولدت في مجرى مياه مبتذلة أو على زورق. أخجل من كوني أبصرت النور في هذه المدينة الشقية، وجلست في مقاهيها جنباً إلى جنب مع هؤلاء الخونة.

– هذه ليست غلطتك. ما مهنة والدك؟

– إنه متقاعد. كان ساعي بريد.

– هل تعرف شيئاً عن أخباره؟

– لا يا سيدي. كل ما أعرفه أنه فرّ من المدينة.

– هل لديك أخوة؟

– أخ واحد يا سيدي. هو جندي مساعد في سلاح الجو. بلغني أنه جُرح في غارة نفّذها طيران حلف شمال الأطلسي.

كان ذقنه على وشك أن يغور في تجويف عنقه.

– هل أنت متزوج؟ سألته لأهوّن الأمر عليه.

– نعم يا سيدي.

لمحت سواراً جلدياً يلفّ معصمه. أسرع إلى إخفائه تحت كمّ قميصه.

– ما هذا؟

– تعويذة سواحلية يا سيدي. اشتريتها من سوق الزنوج.

– لقواها السحرية؟

– لا يا سيدي. أعجبتني خيوطها المجدولة الحمراء والخضراء، فرغبت في تقديمها هديةً لابنتي البكر لكنها لم تحبها.

– الهدية لا تُرفض.

– ابنتي نادراً ما تراني، لذلك ترفض هداياي حرداً.

– كم ولداً لديك؟

– ثلاث بنات. الكبرى في الثالثة عشرة.

– ما اسمها؟

– كرم.

– اسم جميل... منذ متى لم ترَ أولادك؟

– من ستة أشهر ربما أو ثمانية.

– هل تشتاق إلى بناتك؟

– بقدر ما يشتاق الشعب إليك أيها الأخ القائد.

– لكني لم أغادر إلى أي مكان.

– ليس هذا ما قصدته يا سيدي.

كان يرتجف لكن ليس من خوف. هذا الرجل يجلّني. كيانه كله يشي بذلك.

– سأطلب من حسن أن يرسلك إلى بيتك.

– لماذا يا سيدي؟

– بناتك يطالبن بك.

– شعب بكامله يطالب بك أيها الأخ القائد. عائلتي ليست سوى قطرة ماء في هذا المحيط. إنها لَحظوةً وسعادة مطلقة أن أكون إلى جانبك في هذه الظروف.

– أنت فتى طيب يا مصطفى، وتستحق أن تعود إلى بناتك.

– للمرة الأولى في حياتي سأعصي لك أمراً، وسيتملكني نتيجة ذلك غمٌ يودي بي إلى الموت.

صادقٌ هو مصطفى. في عينيه تترقرق دموع لا نلمحها إلا لدى أصحاب النفوس النقية.

– ومع ذلك، لا بدّ من الأمر.

– مكاني هو بقربك أيها الأخ القائد، ولن أستبدله ولو بمكان في الجنة. بدونك لن يكون ثمة خلاص لأحد، وبنسبة أقلّ لبناتي.

– إجلس، طلبت منه مشيراً إلى مقعدي.

– لن أسمح لنفسي بذلك.

– هذا أمر.

انزعاجٌ مرير ارتسم على وجهه.

– مدّ لسانك.

– لم أكذب عليك مرّة أيها الأخ القائد.

– مدّ لسانك.

حاول أن يزدرد ريقه أيضاً وأيضاً، مشيحاً بوجهه. انفرجت شفتاه عن طرف لسانٍ في بياض الطبشور.

– كم يوماً مضى عليك وأنت صائم يا مصطفى؟

– عفواً؟

– لسانك أبيض. هذا دليلٌ على أنه مضت عليك مدّةٌ لم تتناول فيها طعاماً.

– أيها الأخ...

– أعلم أن وجباتي تُقتطع من حصصكم، وأن كثراً من جنودي يحرمون أنفسهم من الطعام لكي يكون لديّ ما أتناوله.

أحنى رأسه.

– كلّ، قلت له.

– لن أسمح لنفسي بذلك.

– كلّ! أريد لرجالي المخلصين أن يظلوا واقفين بثبات على أقدامهم.

– القوة في القلب لا في البطن أيها الأخ القائد. سواء كنت جائعاً أو عطشاناً أو مبتور الأطراف، فسأجد القوة للدفاع عنك. في استطاعتي أن أنحدر إلى الجحيم لأحمل اللهب الذي سيحيل إلى رماد كلّ يدٍ تجرؤ على الامتداد إليك.

– كلّ.

حاول الخادم الاحتجاج مرةً أخرى، لكنّ نظرةً مني ردعته.

– إنني أنتظر، قلت له.

تنشّق الهواء بقوة ليستمدّ جرأةً، وقلّص فكّيه، ثم مدّ يده المتوترة فلامست كسرةً من خبز العسكر، وشعرت به يلتمس من عمق أعماق كيانه القدرة على ضمّ أصابعه ليستطيع القبض على قطعة البسكويت. كان لهاثه يصلني متقطعاً.

– ماذا يجري يا مصطفى؟

كاد يغصّ بقطعة الخبز التي لم ينهِ مضغها. لم يفهم سؤالي.

– لماذا يقومون بكل هذا؟

فهم معنى السؤال فترك قطعة الخبز من يده.

– لقد جُنّوا.

– هذا ليس جواباً.

– ليس لديّ جوابٌ آخر يا سيدي.

– هل كنتُ ظالماً في حقّ شعبي؟

– لا، صاح الخادم. بلادنا لم تعرف قطّ قائداً مستنيراً مثلك، ولا أباً أكثر منك حناناً. لم نكن سوى بدوٍ يكسونا الغبار اتّخذنا ملكٌ خمولٌ ممسحةً، وأنت جعلت منّا شعباً حزاً يثير حسد الحاسدين.

– أتريدني أن أصدّق أنّ ما أسمعه في الخارج من أصوات انفجارات ليس سوى مفرقعات عيدٍ لا أعرف أين يكون؟

زمّ الخادم عنقه بين كتفيه كما لو أنّ كلّ عار الخونة أُلقي دفعةً واحدة على كتفيه.

– لا بدّ أنّ لديهم أسبابهم، أليس كذلك؟

– لا أستطيع تحديدها يا سيدي.

– كنت تعود إلى بيتك في الإجازات، إلى بنغازي تحديداً من حيث انطلق التمرّد. كنت تتردّد على المقاهي، والجوامع، والساحات، ولا بدّ أنك سمعت من يطلق كلام سوءٍ في حقي، أليس كذلك؟

– لم يكن الناس ينتقدونك علناً أيها الأخ القائد. آذان مخابراتنا في كلّ مكان. لم أسمع في حقك إلا كلّ كلامٍ طيّب. وعلى أيّ حال ما كنت لأسمح لكائنٍ من كان أن يقلّل من احترامك.

– لا بدّ أنّ مخابراتي كانت عمياء وصماء، ما دامت لم تتنبه إلى أنّ أمراً ما يتحضّر.

بدا تائهاً، وأخذ يفرك كفيه بقوّة.

– حسناً، قلت مجارياً. الناس يتكتمون في العلن، وهذا أمرٌ طبيعي. لكنّ الألسنة تنفلت من عقالها في السرّ. فلا شك أنك سمعت، ولو مرّة واحدة في حياتك، قريباً لك أو ابنَ عمّ أو خالاً يقول كلاماً مسيئاً بحقي، إلا إن كنتَ مصاباً بالصمم.

– عائلتنا كلها تحبك حباً شديداً.

– وأنا أحبّ أولادي حباً شديداً، ولكن ذلك لا يحول دون انتقادهم أحياناً. عائلتك تحبني ولا شك، ومع ذلك لا بدّ أنه كان لدى بعض أفرادها بعض المآخذ الصغيرة عليّ، قرارات متسرّعة، أخطاء عادية.

– لم أسمع أيّ قريبٍ لي يبدي اعتراضاً على أيّ أمرٍ صادرٍ عنك يا سيدي.

– أنا لا أصدقك.

– أقسم لك يا سيدي. ما من أحدٍ في عائلتي ينتقدك.

– غير ممكن. النبي محمد نفسه تعرّض للانتقاد.

– أنت لا. أقلّه ليس في عائلتي.

شبكتْ ذراعيّ على صدري وحدّقت إليه طويلاً بصمت.

ثم انهلتُ عليه مجدداً:

– لماذا يثورون عليّ؟

– لا أعرف يا سيدي.

– هل أُصبتَ بالبله التام؟

– لست سوى مأمور مولج بموقف السيارات يا سيدي.

– هذا لا يعني أن لا يكون لك رأي.

بدأ جسده يتعرّق ونفَسه يضيق.

– قلْ لي، لماذا يثورون عليّ؟

بدأ يبحث عن كلماته كمن يبحث عن ملجأ وسط القذائف. أصابعه مقشورة بكاملها تقريباً، وتفاحة عنقه في حركة لا تستقرّ. اعتراه شعورٌ بأنه وقع في الفخ، وأن مصيره رهنٌ بجوابه.

قال مجازفاً:

– فرط الطمأنينة يثير السأم أحياناً، فيسعى البعض إلى إثارة الحوادث من أجل أن يشغلوا أنفسهم.

– بمهاجمتي؟

– يظنون أن الوسيلة الوحيدة لكي يكبر الإنسان هي أن يقتل أباه.

– أكمل.

– يتنازعون على حق البكوريّة من أجل...

– لا، عد إلى مسألة الأب... قلت "قتل الأب". أريدك أن توضح المقصود بهذه الفكرة.

– لست مثقفاً ما فيه الكفاية.

– لا حاجة إلى أن يكون المرء عبقرياً كي يدرك أن الأب لا يُقتل مهما فعل أو قال، صحتُ خارجاً عن طوري. الأب عندنا مقدّس كالنبي.

دوّى انفجار تراقصت معه مربّعات الزجاج القليلة التي لا تزال عالقةً في النوافذ مصدرةً رنيناً. إنها قذيفة ولا شك. ومن بعيد يتناهى إلينا ما يبدو أنه صوت طائرة حربية تبتعد. تلا ذلك صمت الخرائب المميت، الأشد عمقاً من صمت القبور.

في الغرفة المجاورة، تستعيد الحياة مجراها. صوت ضابط يصدر تعليماته، بابٌ يصرّ، ووقع خطوات هنا وهناك...

– كلّ، قلت للخادم.

هذه المرة أزاح بيده قطعة البسكويت، وأومأ رافضاً بإشارةٍ من رأسه.

– لا أستطيع أن أبتلع شيئاً، أيها الأخ القائد.

– إذاً، عد إلى بيتك، قرب بناتك. لا أريد أن أراك ثانيةً في هذه الأرجاء.

– هل قلتُ شيئاً لم يعجبك؟

– إذهب، أريد أن أصلّي.

لبّى الخادم الطلب.

– أخلِ المكان أولاً، قلت له. إجمع هذه المأدبة البائسة وتقاسمها مع أولئك الذين يعتقدون أن المرء لكي يكبر عليه أن يقتل أباه.

– لم تكن في نيّتي الإساءة إليك.

– إليك عني.

– أنا...

– انصرف!

وجهه الذي كان يرتدي قناع المحارب بات يرتدي قناع الموت. لقد انتهى أمر هذا الرجل. لم يعد في حياته ما يقدّمه إليّ. هو يعرف أنْ لم يعد لوجوده، ولا لكينونته، أو إيمانه، أو شجاعته، أو كل ما يعتقد أنه يجسّده من خير، قيمة الآن ما دام غضبي قد أقصاه خارج نطاق ثقتي.

إني أكرهه.

لقد جرحني.

لا يستحق أن يكون لي تابعاً، وظلّي لن يكون له سوى وادٍ من الظلمات بلا قرار.

انضممت إلى رجالي المخلصين في الطبقة السفلية من المبنى. الفريق أبو بكر يونس جابر، وزير دفاعي، يبدو كالعلم المنكّس.

قبل ذلك بأسبوع كان يضرب بقبضته على الطاولة ويقسم أن الوضع سينقلب لمصلحتنا، وأن عصابة المتوحشين ستُمحى في لمحة عين. كان يبسط خرائط قيادة الأركان ويشير عليها إلى نقاط الضعف في تشكيلات الأعداء، مُركّزاً على العمليات الداخلية التي ستشتّت تحالفات الخونة، مبشّراً بوحدات كاملة من آلاف الوطنيين الذين سيلتحقون بنا، وبالمعارك المهولة التي سيخوضونها بلا هوادة، لدعم تحصينات معقلنا الأخير.

ابني معتصم كان يصغي إليه مثنياً على كلامه، ونظرةٌ شرسةٌ في عينيه.

أما أنا فكنت أستمع إليه بأذن وبالأخرى أرصد جلبة المدينة.

حماسة الفريق لم تلبث أن خبَت، مخليةً مكانها للشك المتعاظم. بعض ضباطي فرّوا من صفوفنا، آخرون وقعوا في الأسر وأُعدموا فوراً من دون محاكمة. رؤوسهم المقطوعة رُفعت كالزينة فوق الأعمدة، وجثثهم التي ربطت إلى سيارات الشحن سُحلت على إسفلت الشوارع. شاهدت بعضها معروضاً كأنصاب مفجعة على الجدران.

ثلاثة أيام والمتمردون يشمتون بنا من القطّاع المقابل وأبو بكر صامت. وجهه أشبه بكتلة ورق معلوكة. يرفض تناول الطعام، قابعاً في ركنه مقطّب الوجه، عاجزاً عن توبيخ ضباطه، هو الذي كانت صيحاته تدوّي أقوى من أصوات المدافع.

لا أعرف لماذا لم ينجح قطّ في إشاعة الطمأنينة التامة في نفسي رغم إخلاصه. كان رفيق دفعتي في الكلية العسكرية في بنغازي، وكان إلى جانبي في انقلاب عام ١٩٦٩ وعضواً من أعضاء مجلس قيادة الثورة الاثني عشر. ما خذلني أبو بكر مرةً أو خانني، ومع ذلك، يكفي أن أنظر إلى عينيه لكي ألمح فيهما رعبَ أيّلٍ صغيرٍ، حيوان أليف ممتنّ لحمايتي أكثر من امتنانه للخدمات التي أقدّمها له.

يخشاني أبو بكر كما يخشى سوء الطالع. هو يدرك تماماً أن أدنى شك يخامرني حياله تكون نتيجته القضاء عليه كما قضيت على رفاقي في السلاح وصانعي أسطورتي الذين تخلّصت منهم بلا تردد حين بدأوا يعترضون سرّاً على شرعيتي.

– بمَ تفكّر أيها الفريق؟

رفع رأسه بصعوبة.

– بلا شيء.

– أمتأكدٌ أنت؟

تململ في مقعده من دون أن يتكلم.

– هل تفكّر في الفرار أنت أيضاً؟ فاجأته.

– هذا أمر لا يخطر لي ببال.

– وهل تظن أن لديك بالاً؟

قطّب جبينه.

– إهدأ. ما قلته كان من باب المناكفة ليس إلاّ.

كنت راغباً في تلطيف الجو، لكن قلبي لم يكن في مزاجٍ ملائم. حين أحاول أن أسرّي عن الحاضرين، فإن الجميع يأخذ كلامي على محمل الجد، وعلى رأسهم الفريق. القائد لا تكون لديه الروح المرحة. تلميحاته توجيهات، وطرائفه تحذيرات.

– هل تظنّ يا ريّس أن في نيّتي الفرار؟

– من يدري؟

– أفرّ إلى أين؟ غمغم مغتاظاً.

– إلى الأعداء. كثر من وزرائي سلّموا أنفسهم لهم. موسى كوسى، الذي عينته على رأس وزارة الخارجية، طلب اللجوء السياسي من الإنكليز. وعبد الرحمن شلقم الناطق باسمي، الجبان الذي لا يُشقّ لجبنه غبار، أضحى مبعوث الخونة والمرتزقة إلى الأمم المتحدة...

– لم أكنّ الودّ يوماً لهؤلاء. لم يكن الواحد منهم سوى انتهازيّ مستعدّ لمقايضة والدته لقاء حفنة من حظوة. أنا أحبك بكل جوارحي، ولن أتخلى عنك أبداً.

– لماذا تتركني إذن وحيداً فوق؟

– كنت تؤدّي صلاتك، ولم أشأ إزعاجك.

لا يعتريني إطلاقاً شعورٌ بالحذر من أبو بكر. وفاؤه لي لا يعادله سوى تعلّقه بالخرافات. أعلم أنه يستشير بانتظام كاشفات البخت كي يتأكّد من أنّ ثقتي به لم تتزعزع.

كنتُ فظّاً معه عن غيظ.

لم أستسغ بقاءه جالساً بحضوري. في العادة كان يقف متأهباً ما إن يسمع صوتي على الطرف الآخر من الخط، ويتصبّب عرقه غزيراً حين أقفل الخط في وجهه.

يا لهذه الحرب اللعينة! لا تكتفي بنقض الأعراف بل تُدرجها أحياناً في إطار التصرفات التافهة. إن كنتُ قد ضربت صفحاً عن تهاون الفريق، فلأنني في زمن الإختلالات الكبرى هذه في حاجة إلى أن أسمع من يقول لي إنه لن يتخلّى عني أبداً.

– ما هذه اللطخة الزرقاء على فكك؟

– اصطدمت ربما بالحائط أو ارتطمت بعارضة السرير. لم أعد أذكر.

– دعني أرَ.

قرّب إليّ الجانب المتضرّر من وجهه.

– تبدو إصابة جدية. عليك استشارة طبيب.

– ليس أمراً ذا شأن، قالها لي وهو يمسّد فكّه. على أيّ حال لا أشعر بأيّ ألم.

– هل من أنباء عن معتصم؟

رفع رأسه نافياً.

– أين منصور؟

– يأخذ قسطاً من الراحة في القاعة الخلفية.

أشرت الى أحد الجنود بأن يستدعي لي قائد حرسي الشعبي.

وصل منصور ضو في حالٍ مزرية؛ مختلّ الهندام بلحية متوحشة وشعرٍ مشعّث وبالكاد يستطيع الوقوف على قدميه.

أنعم عليّ بابتسامةٍ مفتعلة، وسارع إلى إسناد ظهره إلى الحائط كي لا يقع أرضاً. لم ينطبق له جفن منذ أيامٍ ولياٍل. نظراته فارغة وقاتمة كهوَة.

– أكنتَ نائماً؟

– رغبت في دقيقة من الراحة أيها الريّس.

– ألأنك تظن نفسك مستيقظاً؟

حاول عبثاً أن يتحلّى بشيء من رباطة الجأش.

قميصه أشبه بخرقة بالية، وسرواله الملولب يبدو فضفاضاً جداً عليه، إذ لاحظت أنه ضغط حزامه بضعة ثقوب.

أمسكته بكتفيه وانتظرت أن يرفع وجهه نحوي لأنظر مباشرةً في عينيه.

– لا تستسلم يا منصور، قلت له. سنخرج من هذا الوضع، أعدك بذلك.

هزّ رأسه.

– ما هذه القنبلة التي سمعنا صوت انفجارها الآن؟

رفع كتفيه.

تملّكتني رغبة في صفعه.

أبو بكر مال بوجهه جانباً. فهم أنني لا أحتمل حالة قائد الحرس الشعبي بقدر ما لا أحتمل أصوات الرشاشات التي تتردّد في البعيد.

– هل من أنباء عن معتصم؟

أجاب منصور بالنفي بحركة من رأسه، وظهره يكاد ينقطع.

– وعن سيف؟

– يجمع فرقه في الجنوب، قال الفريق. ربما ناحية سبها. فهو يتهيأ لإطلاق حملة مضادة كبرى بحسب معلوماتنا.

ابني الشجاع سيف الإسلام! لو كان إلى جانبي لثأر لي من هذه المؤامرات. لقد ورث مني صلابة الثبات على العهود الحقيقية والهزء بالأخطار. في الواقع لا يعترييني قلق حياله. إنه ماهر وجسور، وحين يعد بشيء يلتزم بوعده التزامه بشرفه. لقد وعدني بإعادة تنظيم جيشي الذي شتتته الضربات الجوية لحلف شمال الأطلسي وبوضع حدّ نهائي لهذا التنامي الوحشي لظاهرة المتمردين. سيف ذو شخصية جذابة وبارع في قيادة الناس، وسيتغلّب بيسر على هؤلاء الخونة المرتشين.

يتقدّم ضابط لعرض تقريره. لم يكن في أفضل هندام، لكن حماسته لا تشوبها شائبة. توجّه بكلامه إلى الوزير:

– أشار مراقبونا إلى أن جنود المشاة وفرق الاستكشاف المعادية تنسحب، سيدي الفريق.

– إنهم لا ينسحبون بل يلجأون إلى مواقع آمنة، أجاب الفريق معترضاً بصوتٍ مرهق.

– ماذا تعني بذلك؟

– بدأوا بإخلاء مواقعهم المتقدمة بعد الظهر بغية عزلنا. أعتقد أننا سنتعرض قريباً لموجة قصف عنيفة.

سألته التوسّع في الشرح.

طلب منصور من الملازم أول الانصراف، وانتظر حتى أصبحنا بمفردنا نحن الثلاثة قبل أن يبوح لنا:

– لقد التقط جهاز تنصتنا رسائل مشفّرة. كل شيء يدعو إلى الاعتقاد أن طائرات قوات التحالف ستستهدف القطاع رقم ٢. وتراجع هؤلاء المتمردين الكلاب يعزّز هذا الاحتمال.

– أين معتصم؟

– ذهب ليتدبّر بعض المركبات، قال أبو بكر وهو ينهض. لا نستطيع البقاء منقطعين هنا في انتظار معجزة تخلّصنا. نحن نفتقر إلى الطعام والتموين وحرية الحركة. وحداتنا مرهقة. سِرت شبه محاصرة بالكامل وفكّا الكمّاشة يطبقان علينا أكثر فأكثر ساعةً بعد ساعة.

– كنت أعتقد أنّ معتصم منشغل بتحصين المواقع. ما هذا التحوّل؟

– أنت نفسك اخترت أن نخترق الحصار.

– هكذا إذاً، هل بثُّ أعاني الآن من خلل في الذاكرة؟

قطّب الفريق جبينه، وقد بلبله نسياني، وشرح:

– لن تكون هناك تعزيزات أيها الريّس.

– ولماذا؟

– سيف الإسلام بعيدٌ جداً في الجنوب. علينا إخلاء سِرت في أسرع وقت ممكن. هكذا تتاح لنا فرصة بلوغ سبها التي أخلاها المتمردون تماماً، من أجل أن نعيد تنظيم صفوفنا، وبمساندة سيف يمكننا إحكام الطوق على مصراته. قبائل الجنوب لا تزال وفيةً لنا. ستؤمّن لنا التموينات.

– متى بدّلتَ الخطط أيها الفريق؟

– هذا الصباح.

– من دون أن تبلغني؟

حملق بي الفريق، وقد أذهله مجدّداً سؤالي:

– لكنني قلت لك يا ريّس إنك أنت الذي اقترحت إخلاء سِرت!

لا أذكر أنني اقترحت مناورةً على هذه الدرجة من الخطورة، لكني اكتفيت بالموافقة حفظاً لماء الوجه.

جلس منصور القرفصاء، يدٌ على الأرض والأخرى على جبينه، كمن سيتقيأ أحشاءه.

– لا يزال لدى العقيد معتصم رجالٌ موثوقٌ بهم في القطاع، قالها الفريق في محاولة منه لمجاملتي. سيجهّز حملةً كبيرة، وعند الرابعة تماماً سنحاول اختراق دفاعات العدو. تراجعُ المتمردين هديةً لم نتوقعها. سيتيح لنا أخيراً هامشاً قليلاً من الحركة. لقد رفعت الميليشيات حواجزها في النقاط ٤٢ و٤٣ و٢٩، ربما كتدبير احترازي إذا صدق جهاز تنصتنا. سنتراجع إلى عمق الجنوب. وإذا نجح معتصم في جمع أربعين أو خمسين مركبة، ستكون لنا فرصة للعبور.

في حال حصلت اشتباكات سنتفرق جميعاً في كل الاتجاهات. ستحدث بلبلة في المدينة، بحيث لا يُعرف مَن يأتمر بأوامر من. سنستغل هذه الفوضى لنغادر سِرت.

– ولمَ ليس الآن؟ قلت. قبل أن يستهدفنا القصف الجوي؟

– لن يكون لدى العقيد معتصم وقت لجمع العدد المطلوب من المركبات قبل عدة ساعات.

– هل أنت على اتّصال به؟

– ليس عبر الجهاز. نستخدم الشعاة.

– أين هو بالضبط؟

– نحن في انتظار عودة دوريات الاستطلاع لمعرفة ذلك.

انزلق منصور على الحائط وجلس بلا تحفُظ على الأرض تماماً.

– عليك بشيء من الانضباط، صحتُ به. هل تظن نفسك في صحن دار والدتك؟

– أشكو من صداعٍ قوي.

– وإن يكن. عليك بالانضباط وسريعاً.

هبّ منصور واقفاً من جديد. التجاعيد التي تبدو كالثلوم في وجهه تضفي على نظرته مسحة بلادة كحيوانٍ في طور نزاع. دفع أبو بكر كرسياً في اتجاهه فرفضه.

– هل تظن حقاً أنهم سيقصفوننا؟ سألته.

– هذا بديهيّ.

– ربما كان هذا تضليلاً، افترض أبو بكر، لا عن اقتناع بل ليكون في صفي.

– لمَا كانوا طلبوا من جنودهم إخلاء المواقع الأمامية.

– هل تظنهم يعرفون أين نحن؟

– لا أحد يعرف أين أنت أيها الريّس، يضربون خبطَ عشواء بانتظار خيانةٍ ما تبدر منا.

– حسناً، قلت. سأصعد لأرتاح. أبلغني ما إن يطرأ جديد.

تمّ تنظيف غرفتي، وحُجبت النوافذ بستائر مشمعة، وجُهّز ما يشبه قنديلَ ليلٍ من مصباح وبطارية سيارة.

تحت الأريكة التي اتّخذتها سريراً لي، وجدت سواراً رقيقاً من الذهب لا بدّ أنه كان لفتاة صغيرة. كان حليةً جميلة مرصّعة بدقة وقد حُفِر عليها بخطٍّ جميل: "إلى خديجة، ملاكي وشمسي". رغبت في التعرف إلى وجه خديجة فبحثت في الأدراج وعلى الرفوف لكني لم أجد شيئاً. ما من صورة متروكة، وما من أثر للعائلة التي كانت تقيم هنا، سوى صورة الأب أو الجدّ، في الصالة. حاولت أن أتخيّل نمط الحياة الذي كان يعيشه "المفقودون" بين هذه الجدران. كانوا ولا شك قوماً في رغد من العيش، يسود حياتهم الحب والطمأنينة، مع أمٍّ ساهرة وأولادٍ سعداء. أيّ جرمٍ ارتكبوه لتتحطّم أحلامهم دفعةً واحدة؟

لم أوفّر جهداً لكي تسود ليبيا الأفراح والأعياد وتنبض الآمال في عروق شعبي، من أجل أن لا يغيب الملاك ولا الشمس عن ضحكة ولد.

كنت أرى الخطر يتقدّم بخطىً سريعة، وأدرك بوضوح مدى حسد الطامعين الذين يسيل لعابهم على ثروات أرضي. أيّ تحذيرات بعدُ أطلقها؟ فلطالما نبهتُ الحكّامَ العرب، هؤلاء المتخمين الذين لا همّ لهم سوى ملذاتهم، والذين لا يصغون إلاّ لتزلّف تابعيهم. كانوا جميعاً في القاهرة منتظمين في صفٍّ واحد، يراقب بعضهم بعضاً خلسةً، بينهم المتعجرف المرتبك بتاجه، وبليد الذهن الذي تحول بلادته دون أخذه على محمل الجد. قادمون جدد توهّموا أنفسهم لحظة وصولهم أبطال المسرحية وهم العاجزون عن التحرّر من طباعهم الفلاحية. أمراء البترودولار الخالعون حديثاً قبعة المشعوذين، السلاطين الملتفّون بعباءات الأشباح، يثيرون الاشمئزاز تماماً بخطبهم التي يجترّونها منافسين بها القوّالين الشعبيين. ماذا كانوا يفعلون هناك؟ لم يكن يعنيهم في شيء كلّ ما ليس له علاقة بخزائن أموالهم. ولأنّ لا همّ لهم سوى ملء جيوبهم، لم يتنبهوا إلى أن العالم يتبدّل بسرعةٍ هائلة، وأن الغد مشحونٌ بالأعاصير التي أخذت تتجمّع في الأفق. بؤسُ مرؤوسيهم، يأسُ شبيبتهم، تشرّدُ شعوبهم، كلُّ هذا لم يكن له موقعٌ على لائحة اهتماماتهم. ويزعمون أنهم يسوسون شعوبهم مقتنعين أنهم بمنأى عن تقلّبات الزمن. ثمّ ليس لدى هؤلاء ما يخشونه ما داموا لا يبدون ردود فعل حادة ولا استعداد لديهم للمقاومة. في مؤتمر القمة الأخير، وفيما هم متسترون وراء ابتساماتهم المخادعة، حذّرتهم بالقول: ما حدث لصدام حسين سيحدث لكم أنتم أيضاً. كتموا جميعهم ضحكاتهم. وبن علي، يا إلهي! بن علي... ذاك الصعلوك في زيّ قائد، الذي كان يتنقل مختالاً وسط رجال شرطته وينسحق كخرقةٍ بالية أمام أصغر مبعوثٍ قادمٍ من الغرب! كان يجلس قبالتي، محمرّ الوجه لشدّة ما حاول كبت ضحكته المجنونة. كنت أسلّيه. كان عليّ مغادرة المنصة والبصق في وجهه.

مسكين بن علي، المعتزّ ببدانته كقوّاد في ثياب العيد، والمسرور بتحويل بلاده بغيّاً تبذل نفسها لمن يدفع السعر الأعلى. إنني أكرهه هذا المنتفخ المتكلّف. لم أكن أحب تسريحة شعره

ولا جاذبيته الرخيصة.

كنتُ عند سيف الإسلام ذاك المساء، ألاعب حفيدي في ركنٍ من الصالة.

كان سيف واقفاً أمام التلفزيون، يشبك يديه على صدره، مذهولاً بالمشهد الذي تعرضه الشاشة العملاقة. المظاهرات تشتدّ أكثر فأكثر في تونس. الجماهير أفلتت من عقالها والحقد مرتسمٌ على الوجوه. الأفواه ترغي بالزبد وترفع دعاء الموت. رجال الشرطة ينسحبون كالجرذان أمام زحف الجماهير الغاضبة الذي لا يقاوم. لا الإنذارات ولا الغاز المسيل للدموع كانت قادرة على احتواء تلك الفجاجة البشرية.

لم أولِ جلبة التونسيين سوى جانبٍ من انتباهي. غير أني في المقابل كنت مبتهجاً لرؤية بن علي يتنكّر له قطيعه. ذاك المساء، كنت أنا الذي يحاول كبت ضحكته المجنونة فيما كان هو يتوسّل بصوته المترنّح شعبه بالعودة إلى منازله. كان ذعره مثيراً للمتعة. وكنت أتلذّذ به. منذ تنصيبه الوهمي، أدركتُ أنّ ارتقاءه إلى القمة ليس سوى تمهيدٍ للسقوط.

قاطعَ طريق رُفع إلى مرتبة رئيس!

كنت أخجل تقريباً من اعتباره زميلاً لي.

فجأةً ضرب سيف كفّاً بكفٍ غير مصدّقٍ ما يرى.

– لقد هرب... فرّ بن علي.

– وماذا كنت تنتظر يا بنيّ؟ هو من الصنف المدلّل الذي يظن ضرطة البقرة طلقة بندقية.

– مستحيل! قال سيف مغتاظاً وهو يزدرد ريقه. الأمور لا تسير هكذا. لا يمكنه الانسحاب الآن.

– وقت الانسحاب ملائم دوماً لأولئك الذين لا يعرفون كيف يصمدون.

تجاوز سيف الموضوع، وتابع ضرب كفٍّ بكفّ، متفاجئاً ومستاءً في الوقت نفسه من السرعة التي أخلى فيها الريّس الساحة.

– إنه عارٌ علينا جميعاً. ليس من حقه الاستسلام. الرئيس العربي لا يستسلم. هذه الشخصية المنسحقة تذلّنا الآن جميعاً فوق ما نحن عليه من ذلّ.

– هذا لا ينطبق عليّ.

– تبّاً له! هو من يتولّى مقاليد السلطة. يكفي أن يتصرّف بحزم حتى يعيد الأمور إلى نصابها. ماذا تفعل شرطته وجيشه؟

– ما تفعله الطبّالات عادةً في الاستعراضات العسكرية.

– يا لها من فضيحة قائد!

– ما كان يوماً قائداً يا سيف. كان قوّاداً متبرجزاً على استعداد للفرار لدى أدنى عراك. النشّالون لديهم من الشرف أكثر ممّا لديه.

أخذ سيف يرغي ويزبد.

أما أنا فحملت حفيدي مجدداً وأدرتُ ظهري للتلفزيون.

لطالما أشعرني الثوار العرب بالسأم، هم نوعاً ما كالجبال التي تتمخّض فتلد فأراً.

سمعت صوت سيارة مقبلة.

أتراه ابني معتصم عاد على رأس الموكب؟

هرعت إلى الممشى ونزلت الدرج سريعاً.

الطبقة السفلية خالية. سمعت صوت خطوات مسرعة نحو مخرج الطوارئ في المقرّ. في الباحة مركبة متهالكة يفرقع محركها قبل إطفائه. هي سيارة شحن صغيرة في حالة مزرية: الزجاج الأمامي نخرته الثقوب، الزجاج متناثر، الهيكل كالغربال، إطار مثقوب وآخر لم يتبقَّ منه سوى مزق كاوتشوك تتدلّى على جوانب العجلة المعدنية. فتح السائق الباب وبقي متهالكاً وراء مقوده، رِجلٌ على الأرض والأخرى على أرضية المركبة. سحب الجنود جسدين عن المقعد الخلفي. الأول محطّم الجمجمة والثاني فاغرٌ فاه وعيناه منقلبتان في محجريهما. وعلى المقعد الأمامي، إلى يمين السائق، رجلٌ يتأوّه.

تقدّم أبو بكر من الشاحنة، يتبعه منصور.

– من أين جاء هؤلاء؟

– إنهم فرقة الاستطلاع، سيدي الفريق، أجابه نقيب.

– فرقة؟ لا أرى سوى مركبة واحدة.

– الاثنتان الأخريان أصابتهما قذيفتا آر بي جي، قضتا على كلّ من فيهما. أجاب السائق بصوتٍ محتضر.

– كيف ذلك، ما من ناجٍ واحد؟ أرعد منصور: أطفئ الأضواء أولاً أيها الأحمق. هل تظن نفسك في الشانزليزيه؟

أطفأ السائق الأضواء بحركات خرقاء بطيئة.

– والعقيد معتصم؟ سألته.

– عبَر من الجهة الأخرى للنقطة ٣٤.

– هل رأيته يجتاز خطوط الأعداء؟

– نعم يا سيدي، زفر بإجهاد وهو يكاد يفقد وعيه. واكبناه حتى حدود القطاع، وأمّنا له التغطية حين حاول المتمردون اعتراضه.

– تقف متأهباً حين تخاطب رئيسك، قلتُ موبّخاً إياه.

كان السائق يتحامل على نفسه كي لا ينهار على المقود. استجمع ما تبقّى لديه من قوة لكي يرفع رأسه مقدار بوصة، وتأوّه:

– لا أستطيع الوقوف على قدميّ يا سيدي. أُصبت برصاصتين تحت ثنية الفخذ وفي ربلة ساقي عددٌ من الشظايا.

أشار منصور إلى جنديين أن ينقلا الجريح الجالس على المقعد الأمامي.

– ماذا جرى؟ سأل أبو بكر.

تلوَى السائق وتنفّس عميقاً ثم انطلق في الكلام دفعةً واحدة كما لو أنه يخشى أن يفقد وعيه قبل أن ينهي تقريره. قال:

– حين تأكدنا أن العقيد معتصم بات بمنأى عن الخطر، قرّر الرقيب القيام باختراقٍ خاطف بين النقطتين ٣٤ و٥٦ لاستكشاف الخطوط الجديدة للأعداء. توغلنا داخل مواقعهم مسافة ٤ كيلومترات تقريباً من دون أن نلقى مقاومة. وفي طريق العودة تعرّضنا لكمين. هاجمتنا مجموعة من قاذفي البازوكا. انفجرت المركبتان، ولا أدري كيف تمكّنتُ من الانسحاب.

– ولماذا عدت إلى هنا، صحت به، ومن دون أن تطفئ الأضواء؟ لا شك في أن الأعداء قد تعقّبوك واكتشفوا مكاننا بسبب غبائك.

بدا السائق مذهولاً من تأنيبي إياه.

– لكن يا سيدي أين تريدني أن أذهب ومعي ثلاثة جرحى؟

– إلى الجحيم أيها الأحمق! لم يكن عليك تعريض مقرّ القيادة العامة للخطر. إنّي أحذرك، لو كُشف موقعنا فسآمر بإعدامك رمياً بالرصاص.

ساعد العقيد السائق على الخروج من المركبة، لفّ يده حول جسده وجرّه نحو قاعة التمريض.

الجنود الآخرون ظلّوا هناك، مسمّرين أمام الشاحنة، كتماثيل من خشب.

منصور ضو غارق في مقعده، يجترّ غمّه وهو يتفحّص أظافره، وبين الفينة والفينة يناجي نفسه، ويهمّ بحركات كالمرضى النفسيين. لا أحتمل رؤيته ينهار. أنا في حاجة إلى أن يحتفظ مساعديّ المقربون بحدٍّ أدنى من التماسك. فما من فارق في نظري بين من يستسلم وبين من يرفض القتال. الأول إن كانت لديه جرأة إعلان جبنه، فالثاني مجرّد منها تماماً.

هذا الرجل الانهزامي، هذا الهيكل الطافي الذي تتقاذفه الأمواج، يثير اشمئزازي. إنه حثالة البشر في نظري.

في القاعة التي خصصناها لإدارة الأزمة، يدرس الفريق أبو بكر يونس جابر بعناية خريطة من خرائط مجلس القيادة، وعلى قميصه وتحت إبطيه بقع واسعة من العرق. كان يتنحنح بين الفينة والفينة متظاهراً بالاهتمام بتفصيل على الخطة، ويميل بجسده كله فوق الطاولة وهو يسند خده بيده لكي يظهر لي كم هو مستغرق في تركيزه. مناورته الصغيرة هذه لا تنطلي عليّ، ولكن يشفع له أنه لا يثير غيظي.

نحن الثلاثة في الغرفة ننتظر الساعي الذي سيأتينا بأخبار معتصم، فمن دون أخبار جديدة عن العقيد سنستمر في الانهيار. كل دقيقة تمرّ تشهد سقوط جزء من ذواتنا.

أعصابي على وشك الانفجار. فلا طاقة لي على احتمال انقطاعي عن العالم، وإقامتي هنا مسلوب الإرادة في انتظار إشارة من ابني تتأخر بقسوة في الظهور. مصيري تحت رحمة الحظ، يحدّده وجه قطعة النقود أو قفاها، والقطعة معلّقةٌ في الهواء، قاطعةٌ كحدّ المقصلة.

توقف منصور عن تفحّص أظافره. ينظر يميناً وشمالاً بحثاً عن شيء لا أدري ما هو، ويتململ بين المساند، كمن يسائل نفسه أين يكون. وحين يهتدي إلى نقطة استدلال يغوص مجدداً في مقعده، مسنداً صدغه بإبهامه والوسطى، ويهزّ رأسه في حيرة. بعد معاناة نفسية طويلة حوّل انتباهه إلى الفريق وسأله بنبرة ساخرة:

– ماذا ترى في كرة البلور؟

– أيّ كرة بلور؟ غمغم الفريق متأففاً من دون أن يلتفت.

– خريطتك. مضى عليك نصف ساعة وأنت تستنطقها، لا بدّ أن تكون قد لفظت ما في داخلها.

– أدرس مختلف احتمالات الانسحاب إلى الجنوب.

– كنت أظن أن الخطة قد أنجزت منذ الصباح. على أيّ حال لم يتبقّ لدينا سوى طريق وحيد هو طريق الجنوب.

– نعم، غير أن العدو يبدّل مركزه ساعةً فساعة. بحسب وحداتنا الاستطلاعية...

– أتسمّي هاتين الدوريتين أو الثلاث التي لدينا وحدات استطلاع؟ هي تخبط على غير هدى، لو شئت رأيي.

– رأيك احتفظ به. لن تعلّمني ما عليّ فعله.

عاد منصور إلى تفحّص أظافره التي لم يُنهِ قضمها بعد، ثم زمّ رأسه بين كتفيه وقال بلهجة المتذمّر الساخط:

– لم يكن علينا مغادرة القصر.

– دعك من المزاح، أجابه الفريق.

– كنّا في أفضل حال داخل غرفتنا المحصّنة تحت الأرض. كان لدينا ركن ننام فيه وطعام نتناوله وكنا في منأى عن الغارات الجوية والقصف المدفعي. انظر أين نحن الآن. مروحية واحدة كافية للقضاء علينا.

وضع الفريق القلم من يده على حافة الطاولة. لقد أدرك أن قائد الحرس الشعبي يسعى إلى استفزازه، وهو يتجنّب المواجهة. لقد كان اقتراح مغادرة القصر من بنات أفكاره هو. لم يكن في حاجة إلى إقناعي إذ كان هذا رأيي أنا أيضاً. المقرات التي كان من المفترض أن تأوينا دمّرها طيران قوات التحالف، بما فيها منازل أقربائي وأولادي. لم تتردد قوات حلف شمال الأطلسي في إلقاء القنابل على أحفادي، وقتلهم دفعةً واحدة بلا خجل أو أسف، في هذه المطاردة الدموية الرهيبة.

– كنا معرّضين للسقوط في الفخ لو أننا لم نغادر ذلك الموقع تحت الأرض، ردّ الفريق محاولاً الإقناع بهدوءٍ مذهل.

– وهل تظن أننا بمنأى عن الخطر هنا؟ ردّ منصور بإصرار.

– هنا، على الأقل، مكاننا غير معروف. ولدينا، إضافةً إلى ذلك، مساحة أكبر للمناورة في حال تعرضنا للهجوم. لو أننا بقينا تحت الأرض في القصر لما كان على المتمردين سوى إحداث فجوة في الخرسانة المسلحة بواسطة مثقاب أو حفّارة وإدخال أنبوب في الثقب وتشغيل مولدات الكهرباء كي يسمّمونا بالغاز.

– هذا أفضل من أن نموت ممزّقي الأجساد، أليس كذلك؟

هممتُ بالوثوب على قائد الحرس الشعبي ودوسه بقدمي حتى أسوّيه بالأرض، لكني متعب.

– منصور، حين لا يكون لدى المرء ما يقول فالأفضل أن يلزم الصمت.

– الفريق تجاوزَته...

– منصور، ردّدت له بصوتٍ أجشّ يشي بكمية الغضب التي بدأت تعتمل في داخلي، ثمّة مثل روسي يقول محذراً: Yazik mo ï vrag mo ï [1]. فلا تدفعني إلى انتزاع لسانك بالكماشة.

[1] لساني عدوي.

فجأةً تناهت إلى مسامعنا أصوات انفجارات هائلة في البعيد. دار الفريق على نفسه، وقد جفّ في وجهه الدم.

– لقد بدأ حلف شمال الأطلسي قصفه!

ندت عن منصور ضحكةٌ خاطفة هازئة:

– تمهّل يا صاحبي. إنك تتسرّع في استنتاجاتك.

– هكذا إذن، ردّ الفريق مغتاظاً.

– على أي حال، قال قائد الحرس بإصرار، إنه لمن المؤسف حقاً ألا يستطيع فريق التمييز بين انفجار قنبلة وصوت قذيفة.

رغبتُ في تناول سلاح وإرداء هذا الوقح قتيلاً، لكنّ برودته ردعتني.

– ما هذا، حسب رأيك؟ سألته.

أجابني منصور بلامبالاة جعلتني أندم على تركي المسدس في غرفتي.

– هذا معتصم يفجّر مخزن الذخيرة في القطاع كي لا يقع في أيدي المتمردين.

– وكيف عرفت ذلك؟ غمغم الوزير.

– أنت بنفسك، أيها الفريق، كلّفته هذه المهمة، ردّ منصور بنبرةٍ متعالية. يبدو أن أجواء الذعر تنسيك الأوامر التي توزّعها يميناً وشمالاً.

– إخرس، أمرتْ قائد الحرس، وأنا مغتاظ من موقفه من جهة، ومرتاح من جهة أخرى إلى أن ما سمعناه لم يكن سوى إنذار كاذب. أنا لا أسمح لك بأن تقلل من احترام وزيري. إن كانت الأحداث قد تجاوزته، فلأنه يجهد نفسه للحاق بها، فيما أنت ترهقنا بمزاجك المتقلّب.

– هذا لا يحول دون بقائي متحفّظاً. المتمردون تحولوا إلى مهربي أسلحة. لقد باعوا بسعرٍ زهيد مستودع الأسلحة في أكمي ومثيلاتها. وبحسب آخر معلوماتنا فإن كتائب الثوار، التي درّبناها ورعيناها وموّلناها وغذّيناها على مدى سنوات على أرضنا، تنضم الآن إلى صفوف الإسلاميين.

– إشاعات كاذبة! هؤلاء الثوار هم أولادي. طاردهم الخونة ليوقعوهم في حبائلهم. ابني سيف الإسلام يسعى إلى استرجاعهم من أجل إطلاق هجوم مضاد ضخم يمحو، في أقل من أسبوع، أيّ أثر لهذا الجيش الألعوبة الذي يحرّكه الصليبيون على هواهم.

رسم منصور حركةً بيده وهو ينهض ويغادر القاعة، ببلادة، مقطّب الجبين.

– لا تحقد عليه، قال لي أبو بكر، إنه يمرّ بفترة اكتئاب نفسي.

– لا أحب أن يكتئب الناس في حضوري. ربع ساعة مع هذا الانهزامي المتشائم يوازي عاماً بكامله من الأشغال الشاقة. إنه يضجرني ويثير غضبي في الوقت نفسه.

– إنّي أفهمك يا سيدي. سيتمالك نفسه. هذا المعبر لا يفضي إلاّ إلى فراغ.

– سأسرّع عبوره بسلاحي ما إن تستقر الأوضاع. وعدته... حسناً، سأصعد إلى غرفتي. أرسل إليّ أميرة.

قبل أن أنصرف نقرت بإصبعي على صدر الفريق:

– راقب منصور عن كثب، ولا تتردّد في التخلّص منه إن هو حاول الفرار.

ردّ الفريق موافقاً بإيماءة من رأسه وعيناه مسمّرتان بالأرض.

وجدتني أميرة مستلقياً على الأريكة، وعمامتي تغطي وجهي. إنها امرأة صلبة، رشيقة ويقظة، سوداء البشرة تقريباً، بشعرٍ غزير وصدرٍ عامر. كانت من بين حارساتي الأوليات. مقاتلة جريئة وجلودة لا تعرف التعب، لم تفارقني لحظةً مذ أدخلتها في خدمتي. متعجرفة، لكنها ذات وفاء ثابت لا يتزعزع، كنت أسمح لها أحياناً بمقاسمتي السرير والطعام حين كانت أكثر شباباً.

خبطتِ الأرض بقدميها وحيّتني التحية العسكرية النظامية. تبدو أطول قامةً باللباس العسكري لكوماندوس المظليين.

– تفقّدي ضغط دمي، أمرتها.

فكّت حزام حقيبة صغيرة، وأخرجت آلة الضغط.

طبيبي الرسمي اختفى في طرابلس في اليوم التالي لقصف قوات التحالف، فأصبحت أميرة ممرضتي المعتمدة.

كان لدينا في مقر القيادة العامة طبيبان أو ثلاثة، لكن إمعاناً في الحيطة قررت الإستغناء عن خدماتهم. هم في عمر الثوار، ولا يمكن توقع تصرفاتهم لكي يحظوا بثقتي.

– ضغطك طبيعي، سيدي.

– نعمَ الأمر. والآن أعطيني الحقنة.

أخرجت من الحقيبة مغلّفاً صغيراً من الهيروبين، وأفرغت محتواه في ملعقة كبيرة، وأشعلت قداحة.

أغمضت عينيّ، وذراعي العارية ممدّدة إلى جانبي. أشعر برعب من الحقن. تكوّن لديّ هذا الرهاب في سنّ الثالثة عشرة حين كادت ممرضة تتسبب لي بإعاقة حين كسرت إبرة في عجيزتي. الالتهاب الذي نتج عن ذلك ألزمني الفراش أسابيع.

عصبت أميرة ساعدي، ونقرت نقرتين أو ثلاثاً على ذراعي لاختيار العِرق الملائم. بعدما نزعت العصبة، سألتها:

– كم حقنةً تبقّت لي؟

– ستُّ حقنات يا سيدي.

– ومن الهيروبين؟

– ثلاثة مغلفات.

– هل أنت واثقة بأنّ ما من يدٍ تمتدّ إلى مؤونتي؟

– هذه الحقيبة لا تفارقني لحظة يا سيدي. هي رفيقتي في نومي وفي يقظتي.

رتّبت العدّة في الحقيبة، وانتظرت أوامري. وأمام صمتي أخذت تتهيأ لخلع ثيابها.

– لا، ليس الليلة، قلت لها ناهياً. لست خليّ البال لهذا الأمر. اكتفي بتدليك قدميّ.

أعادت تزرير أعلى قميصها وباشرت بفك رباط حذائي.

يا للنساء...

كنت أملك منهن المئات.

ومن كل نوع.

فنانات، مثقفات، عذراوات، خادمات، زوجات مسؤولين موالين أو متآمرين.

كنت أجامعهنّ بانتظام متسلسل.

وكانت الإشارة بسيطة: أضع يدي على كتف المحظيّة التي وقع عليها اختياري، فيتكفّل رجالي بإحضارها لي مساءً هديةً ملفوفةً بالشرائط، وكان سريري يقلّب ملاءاته الحريرية، لتتفجّر نشوة الجسد.

كان بينهنّ من يقاومن. كم كنت أحب اقتحامهنّ كما أقتحم المناطق المتمرّدة. وحين يستسلمن بعد أن ألقي بهنّ أرضاً عند قدميّ، كنت أدرك مدى اتّساع سلطاني فتبلغ نشوتي ما لا تستطيع النيرفانا بلوغه.

ما من شيء أجمل من امرأة، ولا أثمن. السماء التي تلتمع فيها مليارات النجوم لا تثير أحلامي كما يثيرها طيف خليلة. ليس الشّعر، والمجد، والعنفوان، والإيمان سوى جهد باطل إن هي لم تؤدّ إلى استحقاق قبلة أو ضمّة أو لحظة سعادة بين ذراعي محظية سحابة ليلة... قد أمتلك كنوز الأرض جميعها وترفضني امرأة فأعود أفقر الفقراء بين البشر.

خبرت هذا الألم العظيم الذي يسمّونه حباً في مدرسة سبها، في فزّان القبلية. كنت في الخامسة عشرة من عمري، بعض البثور في وجهي وزغب فوق شفتيّ في شكل شاربين. فاتن كانت ابنة المدير، وكانت تأتي أحياناً لتتفرج علينا نحن الفتيان نتشاجر في ملعب المدرسة. بدت كأنها خارجة من حلم صيف بعينيها الأشد اتّساعاً من الأفق، وشعرها الأسود المنحدر حتى أسفل ظهرها، وبشرتها الرقيقة. أحببتها لحظة رأيتها. ليالي أرقي كانت عابقةً بعطرها، وكنت لا أطبق عينيّ إلا لألتحق بها عبر آلاف استيهاماتي.

كنت أكتب لها رسائل ملتهبة ولم أتمكّن مرّة من دسّ واحدة إليها. كانت تقيم داخل حرم المدرسة، في بيت ببوابة ضخمة ونوافذ تحجبها الستائر. والسياج الذي كان يفصل بيني وبين فاتن كان يستعصي على العبور كسور الصين العظيم.

اضطررت للانتقال إلى مصراته لمتابعة دروسي فلم أعد أراها.

بعد سنوات وقعت لها على أثر في طرابلس حيث انتقلت عائلتها. كأنّ القدر شاء أن يعوّضني ما انتزعته مني خيباتي المؤلمة: فاتن كانت منذورةً لي!

مختالاً في ثياب ضابط اتصالات شاب، ذهبت أطلب يدها، وفي يدي قالب حلوى ابتعته من أشهر محل حلوى في المدينة.

لا أزال أذكر أدقّ تفاصيل ذلك اليوم. كان يوم أربعاء، نلت فيه إجازة خاصة إثر عودتي من بريطانيا حيث تابعت بنجاحٍ كبير دورةً في صفوف القوات البريطانية. كنت في غاية السعادة بحيث تعذّر عليّ السير في خطٍّ مستقيم طوال هذا الشارع الذي تحيط به الفيلات الفخمة. كانت أشجار السّنط تُظلّل الأسوار ناشرةً عطورها المثيرة للحواس، والسيارات الضخمة كالسفن تلمع تحت الشمس. كانت الثالثة عصراً. وكنت لا أمشي، بل أطير تدفعني نبضات قلبي.

ضغطتُ على الرقم ٦، وانتظرتُ فترةً خلتُها دهراً. كنت أتعرّق تحت شاراتي العسكرية، منضبط المظهر، وأقف منتصب القامة في حذائي العسكري، وسيماً ومعتزاً بنفسي كقائد يقف

لالتقاط صورة تذكارية تتباهى بها ذريته... خادمة سوداء ضخمة فتحت لي الباب وقادتني عبر حديقة من الزهور منسّقة بعناية. الممر مرصوف بحجارة بيضاء كأنها نتفُ غيوم. كانت المرة الأولى التي أدخل فيها منزلاً من منازل الليبيين البورجوازيين. البذخ الذي كان يطالعني فيه بسخاء كان يوقظ في داخلي جذوري المتواضعة، لكني لم أكن لأبالي.

كانت مسيرتي تتحدث عني. انطلقتُ من أسفل السلم، وتجاوزتُ عقبات الأحكام الاجتماعية المسبقة واحدةً واحدة. تعرّضت عائلتي للإفلاس لكي أكون الولد الأول في قبيلتي الذي يدخل مدرسةً، وكنت مدركاً أن امتيازاً كهذا يحتّم عليّ أن أنجح مهما تكن الصعوبات، وأن أثبت للعالم أنني بلغت غاية ما تمنيته. مدير مدرستي القديم تغيّر تماماً. لم أعرفه. لم يكن فيه ما يُذكّر بذلك الشخص السقيم في سرواله الباهت الذي كان يعيش حياةً خاملة في سبها. كان ينتظرني أمام الباب، يرتدي مِبذلاً مزخرفاً بزهور الزنبق فوق منامةٍ باللون الأحمر الرمّانيّ. خُفّاه يتعارضان مع لون قدميه القرمزيّ. والمسبحة التي يقلّب حباتها بأصابعه الوردية تدلّ على الرفاهية الهادئة التي يتنعّم بها بفضل مَنٍّ سماوي يبدو أنه أحسن المساومة من أجل الحصول عليه.

لم يدعُني إلى الصالة التي كانت تلوح لي في نهاية الممر موشّاةً بخيوط الحرير المذهّب ومجهزةً بالأثاث الفخم. لم تكن بزتي العسكرية كضابط لتعفيني من التقيّد ببعض الممارسات التي يقتضيها حسن التصرف. دعاني ربّ البيت إلى الجلوس على مقعد في بهو منزله، حيث من المفترض أنه يستقبل على عجل الأشخاص الذين يعتبرهم غير جديرين بأن يطأوا سجّاده. لم يقدّم لي القهوة ولا الشاي، ولم تلفت نظره علبة الحلوى ولا حماستي المتوترة كعاشق. ثمة أمرٌ ما يؤكّد لي أنني لا أسلك السبيل السليم، لكنّ حبي لفاتن رفض الإقرار بذلك.

حرص الوالد على المحافظة على لطفه، ذلك اللطف البارد، الجاف والرتيب. سألني إلى أي قبيلة أنتمي. لم تعنِ له عشيرة الغوص الكثير. ومن البديهي أنه لم يكن يحب البدو. إقامته في فزّان لم تزده إلا تمسّكاً بشعوره كمدينيّ ألقي به في جحرٍ ضائع يعبق برائحة فرنٍ مهمل وروث الماعز. أما الآن، وقد بات له شقيق ديبلوماسي ونسيب مستشار لوليّ العهد الأمير حسن رضا، فلم يعد للصحراء ولا لبدوها أيُّ أثرٍ في ذاكرته.

– لا بد من الاعتراف أنني فوجئت بطريقتك في التصرف أيها الشاب، توجّه إليّ بفجاجة مغلّفة باللطف.

– أعترف بأني خالفت الأعراف يا سيدي، ووالداي على علم بخطوتي هذه لكنهما يقيمان بعيداً جداً من هنا.

– لا يمنع، فالزواج مسألة جدية، ونحن لنا عاداتنا. إنّ طالب الزواج ليس هو الذي يتقدّم بطلب يد الفتاة التي يريد الزواج بها، على حين غرّة، وحيداً، ومن دون شهود.

– أنت على حق يا سيدي. لقد عدت حديثاً من إنكلترا ولم يمضِ على انضمامي إلى وحدتي الجديدة سوى وقتٍ قصير. كان عليّ بذل جهدٍ كبير للحصول على إجازة لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة، فاستغللت الفرصة بما أني في زيارة للمدينة.

مسّد أرنبة أنفه، نصف عابث ونصف مرتبك.

– كيف تعرفت إلى ابنتي أيها الملازم أول؟

– كنت طالبا في مدرستك يا سيدي. وكنت ألمحها تجتاز ملعب المدرسة للعودة إلى المنزل.

– هل سبق والتقيتما؟

– لا يا سيدي.

– وهل تبادلتما الرسائل؟

– لا يا سيدي.

– وهل هي على علم بمشاعرك نحوها؟

– لا أظن يا سيدي.

– إحم! ردّد مغمغماً وهو ينظر إلى ساعته.

تلا ذلك صمتٌ مزعج كاد يخنقني. ثمّ بعد تفكير توجّه إليّ بإطراء:

– أنت شاب سليم الجسم والعقل، وأمامك مستقبل واعد.

– وهكذا لن ينقص ابنتك شيء، قلت له مؤكداً.

علت ثغره ابتسامة.

– لم يسبق أن نقصها شيء، أيها الملازم أول.

لا أعرف لماذا فوجئت بنفسي أحتقره فجأةً بوجهه الشبيه بوجه البومة، ونظاراته المثبتة على أنفه والتي تنتمي إلى غير هذا الزمن، وصوته القادم من وراء القبور. استجمعت شجاعتي وأعلنت له بصوتٍ كان عالقاً في حنجرتي كالورم:

– شرفٌ كبيرٌ لي إن أنت تكرّمت عليّ بيد ابنتك.

ابتلع ضحكته. تغضّن جبينه ورماني بنظرة محت أيّ أثرٍ لي تقريباً على صفحة الوجود.

قال لي:

– أنت ليبي أيها الملازم أول، وتدرك تماماً التقاليد التي تحكم علاقاتنا.

– لا أفهم ما تقصده يا سيدي.

– بلى، أنت تفهمني جيداً. في مجتمعنا تراتبٌ تماماً كما في الجيش.

وقف ومدّ لي يده.

– أنا واثق من أنك ستجد فتاةً من مرتبتك تسعدك.

لم أجد لديّ القدرة على تحريك ذراعي فظلّت يده ممدودةً في الفراغ.

كان ذلك اليوم أشدّ أيامي تعاسة. قصدت البحر لمشاهدة تحطّم الموج على الصخور. استبدّت بي رغبة في إطلاق صياحي حتى يُخرس صراخي صخب الموج، ويدفع الهول في نظراتي المدّ إلى التراجع.

"ستجد فتاةً من مرتبتك تسعدك"... لم يكن حتى وقت قريب سوى موظف صغير غير قادر على القيام بأوده، يهتمّ بمراقبة الذباب المحوّم فوق طعامه البائس، أكثر من اهتمامه بمراقبة التلاميذ المشاغبين الذين كانوا يُدخّنون سرّاً في حمّامات مدرسته. نسي سريعاً النعال الحقيرة التي كان يتنقل بها طوال الأيام، وهيكله النحيل الذي كان يسيل لعابه أمام كعكةٍ حملتها له أمّ أحد تلاميذه عربون امتنان، والمدير البائس الذي لا شأن له ولا اعتبار، بحيث أن فزّان، على قحطها الصارخ، لم تنجح في منحه بعض تميّز ولو ضئيل. كان يكفيه أنه زوّج

شقيقته لوزيرٍ عجوز حتى وجد لنفسه بين ليلةٍ وضحاها مكانةً، وأهميةً، وطبقةً ينتمي إليها واحمراراً في الوجنتين. "ستجد فتاةً من مرتبتك" قال لي حديث النعمة هذا. ما كانت نكبة تحلّ بي فتبيدني بأشد وطأةً من صوته الأخنّ الذي يتردّد مراراً وتكراراً في رأسي دافعاً بي إلى عمق أعماق اللّجج.

لم أضرب صفحاً عن الإهانة.

عام ١٩٧٢، وكانت قد مضت ثلاث سنوات على تسلّمي السلطة، بحثتُ عن فاتن. كانت قد تزوجت من رجل أعمال وصارت أماً لولدين. جاءني بها حراسي ذات صباح باكيةً. احتجزتها على مدى ثلاثة أسابيع، وقضيت وطري منها كما يطيب لي. زوجها جرى توقيفه بتهمة ملفّقة عن تحويل رؤوس أموال، أما والدها فقد خرج للتنزه ذات مساء ولم يعد بعدها إلى بيته.

منذ ذلك الحين والنساء جميعهنّ ملك يميني.

تحت شمس فزّان المحرقة، والسراب يجهد ليستقرّ على شكلٍ، فيما ريحٌ نحاسية اللون تهبّ على الحصى الملتهب، وقفتُ على صخرة، ولدأ في أسماله يراقب في البعيد نقطةً سوداء تظهر ثم تختفي في ارتدادات الصحراء.

أتراه غراباً أم ابن آوى؟

كوّرتُ يديّ حول عينيّ وحدّقت.

البقعة السوداء أخذت تكبر شيئاً فشيئاً كلما اقتربت مني، يرافقها نظري. إنها خيمة خالي. لم يكن في داخلها أحد، فيما عدا كلباً سلوقياً برأسين منشغلاً بتنشّق مؤخرته، وطاووساً عالقاً في دولابه كذبابة في شبكة عنكبوت. لم يكن هناك أثر لحيّ.

إلى جانب سرجٍ عتيق موشّى بالفضة إبريق شاي يعجّ بخنافس صدفيّة اللون، يتربّع فوق طاولةٍ منخفضةٍ من النحاس. أكواب الشاي المرصوفة فوق بعضها البعض كجذع نخلةٍ سُعفها في شكل أصابع نسائية تزيدها الأظافر الملتوية طولاً. وفي إحدى الزوايا عود عطر يشتعل. دخانه اللولبي يمزق الضوء الباهت بخدوش عميقة. وفي صمت القيظ المدوّي، لا يُسمع سوى صرير بَكَرة. إطار لوحة فخم معلّق بالعمود المركزي للخيمة، يدور حول نفسه ببطء. لم يكن ما يصرّ بَكَرة، بل الحبل الذي بطرفه يتأرجح الإطار. كان الإطار فارغاً.

اعتراني الخوف.

واقشعرّ بدني.

وبدافع غريزيّ أدخلتُ ساقاً داخل الإطار، ورفعت أخرى كما لو كنت أعبر مرآة. فوجئت بنفسي جالساً وسط مجموعة من الأولاد بالأسمال يردّدون الآيات بصوتٍ عالٍ وهم يؤرجحون جذوعهم فوق ألواحهم. عرفت فيها مدرستي القرآنية يوم كان عمري سبع سنوات، جدرانها من الطين وسقفها من عارضات خشب نخره السوس. كان الشيخ ملتفّاً بمعطفه الأخضر ووجهه يكاد يختفي تحت شعره المشعث، يهوّم برأسه فوق وسادته، تهدهده أصوات جوقة تلاميذه التي لا انسجام فيها. وكان حين ينخفض الضجيج قليلاً يضرب عصاه عشوائياً على كتف ما ليبثّ الحماسة في الجو مجدداً ويعود إلى استرخائه. كان الشيخ يرتعب من المشاغبين الذين لم يكن لهم شغل سوى النهيق والضحك في الخفاء. حين يضبط أحدهم، يعلّق الدرس ويأمرنا بالتحلّق حول المذنب ليعرض أمامنا جلسة فلق مرعبة. كان هذا النوع من العقاب يخلّف لديّ ألماً تدوم آثاره طويلاً.

فجأةً يستيقظ الشيخ ويسلّط عليّ نظرة طيرٍ كاسر. "لماذا لا تشارك زملاءك في التلاوة؟ أين لوحك؟ هل تنكرت لدينك أيها الكلب؟" يصيح بي وسط دفقٍ من الإهانات. وعلى طريقة موسى، يلقي بعصاه على الأرض فتستحيل مباشرةً حيةً سوداء مرعبة، ينتفض جسمها بكامله، ولسانها المشقوق شبيهٌ باللهب المتفجّر من الجحيم.

كاد قلبي ينفجر حين رأيت فنسنت فان غوغ في هيئة الشيخ. استيقظت مرتعباً وصدري يخفق وحلقي جاف: أنا في الغرفة العلوية، على الأريكة التي أستخدمها كسرير. وأميرة

غادرت.

استويت في سريري ووضعت رأسي بين يدي، مشوشاً بهذا الكابوس...

في العادة، كانت كمية الهيروبين التي أتعاطاها تدفعني إلى نوم هانئ يجدّد قواي، لكن منذ بضعة أسابيع وهذا الكابوس يعاودني لينغّص عليّ لحظات راحتي القليلة.

حكايتي مع فان غوغ تعود إلى سنوات دراستي الثانوية. فبينما كنت أتصفّح كتابا استعرته من أحد زملائي في الصف، وقعتُ على لوحة شخصية للرسام. حتى اليوم لا أستطيع تفسير ما حصل لي ذلك اليوم. لم أكن قد سمعت يوماً باسم فان غوغ.

لا أزال أذكر أني بقيت مشدوهاً تماماً أمام تلك اللوحة. نصف جبينه تحجبه عمامة بائسة، وضمادة ضخمة تغطي أذنه المقطوعة، ونظرته مراوغة كما لو أن الرسام يشعر بالأسف لكونه جاء إلى هذا العالم. وراءه، لصق الحائط، طباعة بأحرف يابانية نافرة كان الرسام يدير لها ظهره. كان واقفاً، متلفّعاً بمعطفه الأخضر المربع، متردّداً وسط محترفه الحقير البارد.

لم تفارقني تلك الصورة. ظلّت محفورةً في ثنايا عقلي الباطن، وكالعميل المتخفي، كانت كل مرة يلوح في الأفق حدثٌ جلل تعود لتنغّص عليّ رقادي. لم أفهم يوماً السبب. حتى أني استعنت بخبرة إمامٍ من شبه الجزيرة العربية مشهورٍ بتفسيره للأحلام، لكن من دون جدوى.

لم يكن هناك ما يجمعني بفان غوغ سوى البؤس الذي عرفته صغيراً والذي جسّده هو في لوحاته التي لم تكن تؤمّن له قوت يومه وباتت اليوم تقدّر بثروات هائلة.

لا أجد أي علاقة من شأنها أن تفسّر دخول هذا الرسّام الملعون إلى حياتي، ومع ذلك فإني مقتنع بأن ثمة تفسيراً ما. ففيما عدا الموسيقى الشرقية، لم يكن لديّ اهتمام بالفنون. لا بل إني أعترف أنني أضمر نوعاً من الاحتقار للرسامين المعاصرين. أجدهم مخرّبين على غرار الشعراء الملتزمين الذين لا يتمتعون دوماً بالموهبة ويفتقرون إلى السحر الحقيقي. هم بالأحرى انعكاس موضة، طريقة كسواها من الطرق للإيهام بأن الانحطاط نوعٌ من الارتقاء الثوري، وأنّ خطّاً أحمرَ مبتذلاً على قماشة من شأنه أن يرفع الرديئين إلى مرتبة الملهمين ما دام التوقيع، في هذا النوع من التقييم الاعتباطي الذي لا يخضع لمعايير واضحة، هو الذي يفرض الموهبة لا العكس.

بالطبع، لتقديم صورة مشرقة عني أثناء زياراتي الرسمية للغرب، كنت أدّعي أحياناً الدهشة والإعجاب أمام نصبٍ فنّي أو الاستمتاع بالاستماع إلى موزار الذي لم تستطع عبقريته، التي لطالما لاقت التبجيل، أن تحرّك مشاعري في أي لحظة – بالنسبة إليّ، ما من شيء يعادل في الروعة خيمةً منصوبةً وسط الصحراء، وما من سمفونية توازي صوت الريح فوق الكثبان الهلاليّة[2]. ومع ذلك، وبسخرية قدرٍ ما، يستمرّ فنسنت فان غوغ، الذي لا ينتمي إلى ثقافتي ولا إلى عالمي، يمارس عليّ سحراً لا حدود له هو مزيجٌ من رعبٍ وفضول.

2 وتسمى البرخان وهي تلال رملية لها شكل الهلال مع واجهة منحدرة. (م)

عشية الانقلاب، ليلة ٣١ آب والفاتح من سبتمبر عام ١٩٦٩، وفيما ضباطي يعملون على أدقّ تفاصيل العملية الانقلابية على الملك إدريس أثناء غيابه في رحلة علاج إلى الخارج، كنت في غرفتي، متوتراً حتى الموت. فان غوغ كان هناك، في إطاره المذهّب. لم تكن تفارقني نظراته. تقلّبتُ طويلاً في فراشي، ورأسي تحت مخدتي، لكن الطيف لم يكن يفارقني. وحين رنّ

جرس الهاتف أخيراً على طاولة سريري، خرج الرسام من اللوحة وارتمى عليّ، ومعطفه الأخضر تكسوه الخفافيش. استيقظت وأنا أصيح، وجسدي يبلله العرق. "المهمة أُنجزت!" جاءني الخبر من الطرف الآخر للخط. "وليّ العهد استسلم من دون مقاومة. أما الملك، فقد تبلّغ أن لا مصلحة له في العودة إلى البلاد". عند الفجر استوليث على الإذاعة لأزفّ إلى الشعب أنّ الملكية الخائنة التي كانت تمتصّ دمَ الأمة تمّ القضاء عليها، وأن الجمهورية العربية الليبية قد أبصرت النور.

بعد ذلك بأشهر، وقد بثّ منتشياً بهتافات شعبي، أخذت أفكّر بخبطة كبرى تضعني على خريطة العالم. كنت محتاراً بين أن أخلي البلاد من الفرق البريطانية أو أن أسترجع قاعدة ويلوس الجوية من الأميركان... وذات ليلة عاد فان غوغ يرعبني في نومي، وعند الصباح، ورغم التردّد المبرّر لمستشاريّ، اتّخذتُ قراري: لا صليبيين بعد اليوم على تراب عمر المختار المبارك.

في آب عام ١٩٧٥، كان فان غوغ هو الذي حذّرني مرةً أخرى، من خلال حلمٍ ذي عنفٍ نادر، من مؤامرةٍ يحوكها اثنان من أفضل أصدقائي وكاتمي أسراري، بشير صغير هودي وعمر المهيشن. أحبطتُ محاولة الانقلاب باندفاع وطهّرتُ مجلس قيادة الثورة كمن يفقأ دمّلة.

كل مرة يخطر فيها الرسام الملعون في بالي، يضيف التاريخ مدماكاً إلى صرحي.

أتساءل إن كان كتابي كقائد متنوّر، ولون العلم الوطني الذي اخترته لليبيا، من وحي لون معطف فان غوغ الأخضر.

telegram @ktabpdf

أسمع طرقاً على الباب.

هذا منصور ضو جاء يحاول التكفير عن أخطائه... ترى، ماذا عساه يساوي الآن في سوق الحرب؟ ثمن طلقة؟ هي أثمن منه. كلابات، خنجر غير مرهف، حبل قنّب، جميعها تفي بالواجب. إنه، قائد حرسي الشعبي، منصور ضو الرهيب، الأنيق دوماً، الحريص حرصاً شديداً على هندامه العسكري، بات يهمل نفسه من رأسه حتى أخمص قدميه، بهذه اللحية كلحية المشردين، والقميص ذي الياقة المتسخة ورباط الحذاء المفكوك. ليس سوى ظلّ لذكرى قديمة. نظرته، التي كانت في ما مضى أفعل من الصاعقة، باتت تجد مشقةً في تجاوز حدود رموشه.

إنني حزين من أجله، ومن أجل نفسي. ساعدي الأيمن الفعّال بات الآن منهاراً تماماً.

مضى وقت لم يكن يفوت يقظته المتحفّزة فيه شيء. كان على بينة من كل شيء، حتى من صيحات العذارى اللواتي كنت أفتضّ بكارتهنّ بين نفس هيروبين وآخر. منصور في ما مضى كان كسيف داموقليس. دائم اليقظة يراقب كل شيء من البداية حتى النهاية، ويتنبّه لأدقّ بذرة فساد ويئدها في مهدها قبل أن تنمو. لا شيء عنده متروك للصدفة. شرطيوه كان ينتقيهم بعناية، ويعاقبهم بقسوة لدى أدنى هفوة. المشتبه بهم كانوا يتبخّرون في الطبيعة بأسرع من خيوط الدخان، وأنا كان في إمكاني أن أستمتع بلياليّ بكلّ اطمئنان.

– لا تغضب مني يا ريّس. لم أتناول حبوبي منذ أسابيع.

لقد أخفى عني أنه كان يتابع علاجاً، أنا الذي كنت أظن أن الوهن لن يعرف إليه سبيلاً. كان يوحي بأنه عصيٌ على التعب والمرض. حتى إني أخضعته لمراقبة أمهر جواسيسي، فشخصيته الجذابة وسطوته على رأس حرسي الشعبي تجعلانه منافساً محتملاً. وبما أن السلطة محرَكةٌ للهذيان فلن نكون بمنأى عن الأحلام القاتلة. بين الثكنة والقصر الرئاسي خطوةٌ واحدة، والطموح الذي لا يعرف حدوداً يُقدِم على المجازفات الخطرة... غير أني كنت مخطئاً خطأً جسيماً في مسألة منصور: ما كان ليتردّد لحظة في ذبح أمه إن هي اقترفت إساءةً ما في حقي.

أشرت إلى مقعد.

– أفضّل البقاء واقفاً.

– إنني أقدّر جهدك، قلت له ساخراً.

– أنا شديد الانزعاج من نفسي.

– تخطئ حين تبالغ في لوم نفسك بسبب لحظة ضعف. إن لديّ هنا في صدري قلباً يخفق.

– تقديرك لي لا يعادله مجدُ العالم كلّه.

– إنك لتستحقّه... أنت رجل شجاع. والدليل أنك بقيت معي.

– وحدها الجرذان تفرّ من المركب المهدّد بالغرق.

– ألستُ سوى مركب بالنسبة إليك؟

– ليس هذا ما قصدته.

حدّقتُ فيه. ازدرد ريقه بضيق. جاء يصلح موقفه السابق فاكتشف أنه يراكم حماقاته.

– ترى، ألم يكن من الأفضل لو أني بقيت في الأسفل؟

– سؤال ممتاز.

لهجتي الباردة أرهقته. فامتثل، خافضاً رأسه، واتّجه نحو الباب وهو يجرّ قدميه.

– لم أسمح لك بالمغادرة.

تردّد، ويده على مقبض الباب.

– عذ أيها الغبي.

استدار. ارتجاف شفتيه جعل لحيته تضطرب.

– أشعر أنني فظّ بائس وغير جدير بالوقوف بين يديك.

– تباً لك، ماذا دهاك؟ أتراها بنات آوى الهائمة في الخارج هي التي تفقدك رباطة جأشك، أم تراك في حيرة بين أن تستسلم أو تنتحر؟

– تديّني يمنعني من التفكير في الانتحار، يا ريّس. أما بالنسبة إلى النجاة بجلدي، فقد سنحت لي الفرصة مرات عدة. حتى إنهم اقترحوا عليّ منفىً ذهبياً إن أنا وافقت على تسليم نفسي. بقائي معك دليلٌ على أنّ ما من منفى يعادل ظلك. أنت أفضل ما منّت به الحياة عليّ، والموت في سبيلك حظوةٌ وواجب.

– أنا سعيد باستعادة منصور الذي أعرفه.

أعاد له ثنائي ثقته بنفسه، فعاد نحوي باندفاعٍ فجائيٍّ محموم:

– سأثبت لك أنني ما زلت أنا نفسي، وأن هذه الحرب ليست سوى ستار من دخان، وقريباً يبسط النور ضوءه على ليبيا بكاملها. سأجتثّ المتوحشين الذين يتمرّدون عليك حتى آخر نفر فيهم وسأبسط جلودهم المسلوخة بساطاً أحمر تسير عليه لترتقي عرشك.

– لن يكون هناك غرق يا منصور. من يتولّى الدفّة ليس أيّاً كان. علينا الصمود بضعة أيام، هذا كل ما في الأمر. شعبنا سيؤوب إلى رشده وسيدرك أن تنظيم القاعدة هو الذي يتنمّر في شوارعنا. ثق بي. ليست سوى مسألة وقت، وبعدها سنعلّق في الساحة كلَّ آكلي الجثث المتعفنة هؤلاء الذين ينهبون ويغتصبون ويغتالون باسم الله.

قبل بالجلوس على الكرسي الذي أشرت عليه به، واثقاً من أني أصفح عنه. لم يبتسم بعد، لكن في نظرته طيف ثقة.

تركته يستجمع أفكاره قبل أن أتابع:

– راودني حلم يا منصور. رؤيا.

– لا أزال أذكر الحلم الذي راودك عشية اجتياح العراق، لقد رأيتَ كل شيء.

– إذن اطمئن سريعاً. الحلم الذي رأيته يشدّ من عزيمتي: سننتصر قبل انقضاء أكتوبر.

– لا يمكنني تخيّل ليبيا وأنت لست على رأس السلطة فيها يا ريّس. لن يكون لها معنى.

كان صوته أضعف من أن يبلغني. كان أقرب إلى اللهاث. منصور لم يكن سوى شرارة يتيمة، ما إن تتوهج حتى تخبو. زهوّه الماضي يلفّه بالشقاء كغطاءٍ رثّ على جسدٍ ميت.

تناولتُ المصحف عن مسند الأريكة، وفتحته كيفما اتفق على إحدى الصفحات وبدأت بالقراءة. لم يُبدِ قائد حرسي تذمّراً. استند إلى ساعد الكرسي، وعيناه تائهتان في الفراغ. قرأت آية، ثم اثنتين، فثلاثاً... ومنصور لم يتزحزح من مكانه.

وضعت القرآن من يدي.

– هل لديك ما تريد أن تقوله لي؟

انتفض:

– لم... لم أسمع.

– أسألك إن كان لديك ما تريد أن تقوله لي.

– لا. لا...

– هل أنت واثق؟

– نعم...

– لماذا لا تغادر إذاً؟

– أشعر بالراحة بقربك.

نظرت إليه بطرف عيني. حاول أن يشيح بوجهه فلم يفلح.

– لا تضعف يا منصور. بعض الجرأة، تباً لك! إنك تفقد السيطرة على نفسك.

حرّك رأسه يمنةً ويسرة. بدأ يثير غيظي حقاً.

– بمَ تفكّر؟

– بالاستيقاظ، أيها الأخ القائد.

– أنت مستيقظ.

بدأ يعبث بلحيته، ويمسّد أرنبة أنفه، ويحكّ أذنه. اعتراني شعور بأنه سيعتصرني بين يديه.

– ماذا تعتزم أن تفعل بعد السيطرة على هذه الانتفاضة الحمقاء؟ سألته تلطيفاً للجو.

– العودة إلى منزلي، قال مباشرةً كما لو أنه لم يكن ينتظر سوى فرصة للتعبير عن أمنية عزيزة عليه لم يسبق أن أفصح عنها.

– وبعدها؟

– الاستقرار فيه...

– منزلك أنت؟

– نعم، منزلي أنا.

– حقاً؟

– حقاً.

– ستتخلّى عن قيادة حرسي الشعبي؟

– ستتدبّر لنفسك أحداً سواي.

– أنت من أريده يا منصور.

حرّك رأسه بإشارة رفض.

– المسؤولية عبء ثقيل جداً يا ريّس. لم تعد لكتفي القدرة على حمل شيء سوى قميصي. سأسلّم بزتي وأستقيل.

– لترتدي بزّة ربة منزل؟

– ولمَ لا؟ لدي رغبة في الرجوع إلى بيتي، وتمضية صباحاتي في الاعتناء ببستاني ومساءاتي في الصلاة كي يغفر الله لي ما ارتكبت من شرور.

– هل ارتكبت شرّاً يا منصور؟

– بالطبع. ما من سلطة إلاّ وتغري باستغلالها. لا بدّ أني كنت ظالماً أحياناً وقاسياً أحياناً أخرى، رغماً عني.

أكره رنّة صوته.

– هل تظن أنني كنت ظالماً وقاسياً؟

– إنني أتكلّم عن نفسي يا ريّس.

– انظر مباشرةً في عينيّ حين أخاطبك!

كادت صرختي تقضي عليه.

– هل كنتُ ظالماً وقاسياً يا منصور؟

انقبضت حنجرته، ولم يجب.

– هيا، أجب. آمرك أن تصارحني بالحقيقة. لن أنقم عليك، هذا وعد. يجب أن أعرف كي لا يخرج عليّ متمردون في المستقبل.

– ريّس...

– هل أخطأتُ في حقّ شعبي؟ صحت به.

– وحده الله معصوم عن الخطأ، قال أخيراً.

غضبٌ شديد تملّكني، كما لو أني فجأةً لم أعد أدرك أين أنا ولا من أين جئت. مهاناً، منتهكاً، مصلوباً على مذابح متوهّجة النيران. ومن دون وعي انتفضت واقفاً أمام قائد حرسي، مهدّداً، ومستعدّاً لتمزيقه إرباً. غضبٌ مرعب قطع أنفاسي. شعرت بالاختناق.

– أيها القذر!

– لقد وعدت أن تبقى محافظاً على هدوئك يا ريّس.

– إلى الجحيم. بالأمس كنت تتخم نفسك على موائدي، واليوم تبصق في الطبق. السيد أنّبه ضميره فجأةً وهو يطلب الغفران. لقد قمت بواجبك أيها الأبله. لا نتحدث عن تأنيب الضمير حين يتعلق الأمر بالدفاع عن الوطن. الأضرار الجانبية هي جزءٌ من الحرب. العواطف لا مكان لها في إدارة شؤون الدولة والأخطاء مبرّرة... ما المآخذ عليّ بالتحديد؟ حادثة لوكربي ورحلة طيران UTA رقم ٧٧٢؟ الأميركيون كانوا البادئين. دمّروا قصري وقتلوا ابنتي بالتبنّي. هم الذين أطلقوا على قواتي الجوية في معيتيقة غارتهم الجبانة "إلدورادو كانيون". هذا من دون ذكر الحصار، وتصويري بهيئة الشيطان، وفرض الحجر عليّ على الصعيد الدولي. فلا ينتظروا أن أشكرهم في مقابل ذلك... ماذا يأخذون عليّ أيضاً؟ مقتلة سجن أبو سليم؟[3]. كل ما فعلته هو إنقاذ أمتنا من جرثومة مرعبة، ومن حثالة من الجهلة الإرهابيين. الخونة كانوا يهددون استقرار البلاد. هل كان من الممكن تصوّر مدى الفوضى التي كان سيتسبّب بها

هؤلاء الوحوش لو أنهم نجحوا في الفرار؟ الجزائر تخبّطت في الرعب تلك الليلة التي فرّ فيها آلاف المعتقلين من سجن لامبيز. ومن ثم تعرفون البقية: عشرات عمليات الإرهاب والمجازر. رفضتُ أن تشهد بلادي المصير نفسه.

3 أكثر من ألف ومئتي سجين جرى إعدامهم في سجن أبو سليم في طرابلس الغرب يومي ٢٨ و٢٩ حزيران/ يونيو عام ١٩٩٦.

ضربت بقبضتي مسند الأريكة.

– بلادنا كانت تحت المجهر يا منصور، وباستمرار. أعداؤنا يسعون إلى نسف مشاريعنا باللجوء إلى مختلف الوسائل، بما فيها الاستعانة بمسؤولين من بلادنا. تذكّر أن الأخوة الذين أخذتُهم على عاتقي، وكسوتُ صدورهم بالنياشين والرتب، ومنحتهم الحظوة والشرف، وعاملتهم بأفضل مما يعامَل الملوك. كلّ سخائي هذا لم يكفهم، فطالبوا دوماً بالمزيد، برأسي على طبق من فضة. هل ترى أنني كنت مخطئاً في التخلّص منهم؟ هلى ترى أنني أسأت التصرف؟ لكل شيء ثمنه يا منصور. الوفاء كالخيانة. لا تُليّن قلب التمساح بكفكفة دموعه. إما هم وإما أنا، مصالح الصليبيين أو مصالح ليبيا. حين أفكّر برفاق سلاحي الأثيرين، أولئك الذين غامروا بحياتهم من أجل مساعدتي على الإطاحة بذلك الملك الخمول إدريس، كيف استسلموا لإغراءات وعود الإمبرياليين ولم يترددوا في التآمر عليّ، على الشعب الليبي، على الوطن الخالد... حين أفكر بهؤلاء الخونة، ألوم نفسي لأني لم أكن حازماً ما فيه الكفاية، ولأنني كان عليّ أن أكون أكثر شراسةً ودموية. لأني غلّبت الجانب الأبويّ على الجانب الصارم الذي يقتضيه الحكم، أواجه اليوم تمرداً. كان عليّ إبادة نصف شعبي من أجل إنقاذ النصف الآخر، من أجل أن يعيش كل واحد بطمأنينة حيث يكون ومهما يفعل.

أمسكت به من ياقة قميصه ورفعته. تطاير لعابي على وجهه. كان يضطرب بين يديّ، ولا يعرف كيف يهرب من نظراتي. سيهوي كقطعة قرميد إن أنا تركته.

– انظر أين نحن اليوم. المتآمرون ينقضّون علينا. بلدان لم يكن بيننا وبينها أيّ عداء تمطرنا بقنابلها. حتى قطر دعت نفسها إلى وليمة العيد. والدول العربية ماذا تفعل؟ أين هي؟ تحتفل بهزيمتنا، وتهيّئ الآن جنازتنا.

– ماذا كنت تنتظر؟ قال محتجّاً وهو يدفعني من معصميّ ليخلّص نفسه من قبضتي. أن يهبّوا إلى نجدتنا، مطلقين أبواقهم ورافعين أعلامهم في الريح؟

لن أتطرّق إلى ذلك مجدداً. لقد تجرّأ منصور ضو على رفع صوته ويده عليّ. تسبّب بألمٍ في معصميّ. تراجعت مستنكراً فعله. سدّد إليّ نظرةً غاضبة، ووجهه محتقن وأنفه يختلج. بدا كأنه يستعدّ للانقضاض عليّ.

– لا أبالي بالعرب، انفجر ثائراً. أنت الذي سهّلت لهم امتطاء ظهورنا. لقد حقّرتهم وأهنتهم وأذللتهم. كنت تنعتهم بالماشية الجرباء التي تقودها الكلاب الخسيسة. فمن الطبيعي إذن أن يهلّلوا لسقوطنا.

ظللتُ مكتوم الصوت، لا أعرف إن كنت أحلم أم أهلوس. هذه هي المرة الأولى، منذ أيام الأكاديمية، التي يقلّل فيها ضابط من احترامي. أشعر أنني على وشك الإصابة بسكتة دماغية. منصور لا يزال على انفعاله، يرتجف غضباً وغيظاً.

أشار بإصبعه نحو النافذة:

– ما الذي يحدث في الخارج يا ريس؟ ما هذه الضوضاء؟ هل هي جلبة السمّار؟

اندفع نحو الشبّاك، وطرق بإصبعه على الستائر التي تغطّي المربعات:

– ماذا تسمع يا ريّس؟

– وماذا يفترض بي أن أسمع أيها المخبول؟

– نغمة أخرى مختلفة، أناشيد غير التي اعتدت سماعها من المتملّقين والمتزلّفين، وغير التقارير الناعمة لهيئة أركانك. انتهى زمن الأكاذيب، و"أمرك سيدنا"... و"كل شيء على ما يرام سيدتي المركيزة". في الخارج شعبٌ غاضب...

– في الخارج تنظيم القاعدة.

– كم عديد هذا التنظيم؟ خمسمئة، ألف، ألفان؟ من أين جاءت إذن تلك الآلاف المؤلّفة من المتوحشين الذين يجتاحون مدننا ويقطعون رؤوس عجائزنا ويبقرون بطون نسائنا الحوامل ويسحقون جماجم أولادنا بأعقاب البنادق؟ هؤلاء ليبيون يا ريس، ليبيون مثلك ومثلي، كانوا حتى الأمس القريب يهتفون باسمك وهم اليوم يطلبون رأسك.

وعاد إليّ كالسلاح المرتدّ:

– لماذا يا ريّس؟ لماذا هذا التحوّل؟ ما الذي جرى كي ينقلب الحمل ضبعاً، وكي يقرّر الأولاد التهام آبائهم؟... نعم أيها الأخ القائد، لقد أخطأنا. أسأنا التصرف. كنت تفكّر بالتأكيد في مصلحة الأمة، لكن ماذا تعرف عن هذه الأمة؟ ما من دخان من دون نار أيها الأخ القائد. إن كنا نجد أنفسنا بلا حول ولا قوة فليس ذلك محض صدفة. المجازر والتخريب في الخارج ليست نتيجة سحر أسود ألقي علينا، بل نتيجة هذياننا وشططنا.

صدمني كلام قائد حرسي الشعبي حتى إنّ ركبتَيّ كادتا تنهاران تحت وطأة غيظي. ما توقّعتُ يوماً أن أخاطَب بمثل هذا الكلام. وبما أني ما اعتدت يوماً أن ألقى معارضة، ولا أن يسدّد أتباعي خطاي، شعرت بنفسي كأني تشظّيت ألف قطعة.

الناس جميعاً يلاحظون كم أنا سريع التأثر، جميعهم يعلمون أنني شديد الحساسية حيال الملاحظات التي تثير جنوني حين تكون فظة، إلى درجة أني أشرب دم من يتجرأ على التصرّف بوقاحة.

أيكون منصور قد فقد عقله؟

عدت وتهالكت على الأريكة، واضعاً رأسي بين يديّ. هل عليّ أن آمر بإعدام منصور بالرصاص فوراً؟ أم أقتله بيديّ؟ سورة غضب متأجّج اكتسحتني.

– أنا لا أحاكمك أيها الريس...

– إخرس يا كلب.

جثا أمامي. صوته هدأ فجأةً وقال مسترضياً:

– كل صمت الأرض لن يخرس الحقيقة يا ريّس. أنا لا ألومك، بل أسرد لك. لا أعلم إن كنا سنبقى أحياء حتى الغد. معمّر يا أخي وصديقي ومعلمي، لا أبالي حقاً بما سيحلّ بي أو بعائلتي. أنا لا يحسب لي حساب، لست بالكاد شيئاً. إنني أخشى عليك، عليك فقط. إن أصابك مكروه فلن تقوم لليبيا قائمة من جديد. هذه البلاد الجميلة التي بنيتها وحدك، رغم كل التحديات، ستتفتت كذُخرٍ قديمٍ منخور. اليوم أحرقوا العلم الأخضر من أجل أن يرفعوا علم

الدم والحداد، وغداً سيحلّ نشيد غنائيّ تافه محل النشيد الوطني الذي اخترته لنا. حطّموا تماثالك، ويشوّهون صورك، وينهبون قصورك. إنها فجيعة نهاية العالم أيها الأخ القائد. وأنا لا أستطيع تقبّل الأمر. من دونك سيجنح المركب على شواطئ مظلمة وحطامه ستبدّده الأمواج، ولن يعود ثمة أثر لما جرى. من دونك ستنبش القبائل سلاح الحرب الذي يرقد تحت قرون من الضغائن والثارات التي لا ترتوي والخيانات التي ظلت من دون عقاب. ستقوم دويلات بعدد العشائر. والشعب الذي توهمت أنك جبرت كسوره، سيجد أن هذه الكسور لا تزال هي نفسها لم تلتحم، وهذه البلاد التي شيّدتها ستصبح مزبلةً للجاحدين ومقبرةً للعهود والصلوات...

– اصمت أرجوك.

أجهش منصور بالبكاء.

أمسك بمعصمَيّ وضمّهما إلى صدره كما لو أنه يحمل على عاتقه مصير البشرية جمعاء.

– يجب أن ننتصر على هذا الشقاء يا ريس. من أجل خير الوطن، واستقرار المنطقة. أنا على استعداد لأن أبذل حياتي وجسدي وروحي من أجل أن تستعيد ليبيا.

دفعته عني بلطف وحذر.

– اذهب يا منصور، دعني وحدي الآن.

حين رفعت عينَيّ كان منصور قد غادر – أظن أنني قد أغمي عليّ في غضون ذلك.

ذرعت الغرفة طولاً وعرضاً وأنا أرفس الفراغ، ولا أتوقّف إلا لأسدّد إصبعاً قاتلاً على ظلّ أو لأضغط على عنقٍ وهمي. غاضبٌ حتى الجنون. هذه الحشرة منصور تجزأ على رفع يده في وجهي. مقرّبون كثيرون أعدمتهم لأقلّ من ذلك. سجوني تغص بالجاحدين والمشتبه بهم والساخطين والطائشين المتهورين وبمَن وضَعهم سوء حظهم في المكان غير الملائم في اللحظة غير الملائمة. لا أحتمل أن تناقش أوامري، وأن تكون أحكامي موضع تساؤل، أو أن يمطّ أحدهم شفتيه اشمئزازاً أمامي. ما أقوله كلام مُنزّل، وما أفكّر به نبوءة. من لا يصغي إليّ أصمّ، ومن يشكّك فيّ هالك. غضبي علاج لمن يتلقاه، وصمتي زهدٌ وتقشّف لمن يتأمله ويفكّر فيه ملياً.

ماذا يريد منصور؟ هل يدرك مقدار هذيانه؟ يقول الشيء وضدّه، ويقفز من موضوع إلى نقيضه، من الولاء إلى الجحود وبسهولة مقلقة.

لقد بلبلني.

من دوني لن تكون ليبيا سوى نكبة بلا اسم أو غد. هذه الأرض المقدسة ستكون وقفاً على الشقاء والعار، مقابرنا ستطلق أشباحها على نهاراتنا ولياليا، وأحياؤنا سيتحولون إلى أموات أحياء، وأنصابنا إلى مشانق.

أدور في قفصي، أطارد أفكاري المدمّرة كما يركض مجنون وراء وساوسه.

"الله وحده معصوم عن الخطأ!"، إلامَ يلمّح قائد حرسي؟ إلى أنني محرّض على الجرم أم إلى أنني مرتكبه؟ لم أخطئ ولم أضعف. لقد حافظت على عهودي كلها، وكسبت جميع رهاناتي، وخرجت منتصراً على كل التحديات. الهيجان الذي يملأ الشوارع غيظاً ليس سوى انحلال وعار ورجس وجحود مرعب.

لست ديكتاتوراً.

أنا الحارس الروماني الشرس؛ الذئبة التي تحمي صغارها بأنياب بارزة؛ النمر الجموح والغيور الذي يبول على الاتفاقات الدولية لكي يرسم حدود أرضه. لا أعرف أن أحني ظهري أو أغضّ طرفي حين يتعالون عليّ. أمشي مرفوع الهامة، وبدري هالة حول رأسي، وأدوس بقدمَيّ أسياد العالم وتابعيهم.

يزعمون أنني مصابٌ بجنون العظمة.

هذا خطأ.

أنا كائن الاستثناء، والعناية المتجسّدة التي تحسدها الآلهة والتي عرفت كيف تجعل من قضيتها عقيدةً دينية.

هل أنا المخطئ إن كان شعب ليبيا الباسل قد انحطّ إلى هذا الدرك من الإسفاف، فيرغم على تدمير بلاده وإسالة دمائه كمياه قذرة، فيما المتلاعبون به مغتبطون باستشهاده في انتظار نهب آخر قميص له؟

أسندت جبيني إلى الحائط، وشبكت يديّ وراء رقبتي وأنا أشهق وأزفر: "هيا يا معمّر، نقّ روحك وطهّرها مما علق بها من أدران. تنفّس بهدوء كما لو أنك تتنشّق عطر امرأة، ثم ازفر البخار الفاسد الذي في داخلك... هكذا، جيد. تنفّس، تنفّس. تخيّل أنك وسط الجنائن المعلّقة وتتنشّق ملء رئتيك عطور بابل. دع فكرك يحلّق عالياً أعلى من عصافير الجنة. أنت معمر القذافي، هل نسيت؟ لا تسمح لهذه الحثالة أن تسقطك من عليائك...".

صوتي يخترق حواسي، فيصقل أنسجتي ويطهّر كياني. الخفقات الصمّاء التي كانت تطرق صدغيّ أخذت تضعف شيئاً فشيئاً. نبضات قلبي انتظمت، صرت أفضل حالاً بكثير.

عدت إلى مقعدي وتناولت القرآن وفتحته كيفما اتفق: لم أتمكّن من التركيز. نحيب منصور عاد يقرع رأسي كالهراوة.

أغمضت عينيّ بقوة لأكبتها، وتشبّثت بنداء روحي.

لا أجيد الإصغاء إلا إلى هذا "الصوت" الذي يناديني من أعماق كياني ويهزّ أغوار روحي كما يتلاعب عازفٌ ماهر بأوتار قيثارة. هو الذي حضّني على الإطاحة بالنظام الملكي، وتحدّي إمبراطوريات بأكملها، وإذلال القدر. أدركت على الدوام أنني جئت إلى هذا العالم لكي أدمغه ببصمتي، مستنيراً بهذا "الصوت" الكوني الذي يهدر في داخلي كلما أطلّ الشك برأسه، مقدّماً لي كل يوم إثباتاً جديداً أن السماء تباركني. لم أصغِ يوماً إلى صوت غير صوتي.

كانت أمي تنتف شعرها حين تلاحظ أنني لا أصغي إليها، موقنةً أنّي ضحية سحر أسود. طافت بي على مختلف أنواع المشعوذين الذين لم تؤثّر فيّ وصفاتهم، ولا هدّأتني تعويذاتهم.

لم أكن أقوم إلا بما أرتئيه أنا، صامّاً أذنيّ عن التأنيب، رافضاً بإصرار شديد كلّ ما لا يناسبني. "الشيطان يسكنك" كانت أمي تردّد وهي تنتحب حتى تخور قواها. أيّ ذنبٍ جنيتُه في حقّك كي تمرضني من الصبح حتى المساء؟ "حاول أن تصغي مرة واحدة إلى نداء العقل، مرة واحدة فحسب". كنت أوافق رأفةً بها، ثم بعد بضع ساعات تطرق إحدى جاراتنا بابنا، مقدّمةً ابنها البكّاء لأمّي كدليل إثبات. "عليكِ أن تحبسي جنيّكِ"، كانت تصرخ في وجه أمي. "ما إن يصادف صغارنا في الطريق حتى ينقضّ عليهم".

في الواقع لم أكن أصغي إلى أحد كي لا أسمع أكاذيبه. كانوا دوماً يكذبون عليّ. حين كنت أسأل عن والدي كان يأتيني ردّ أمي سريعاً: "إنه في الجنة". كنت أفتقد والدي بشدّة. وكان غيابه يُشعرني بنقصي. كنت أغبط الأولاد الذين كانوا يقفزون حول آبائهم. كان هؤلاء الآباء كباراً كالآلهة في نظري ولو لم يكن مظهرهم يوحي بذلك. في سن الخامسة راودتني فكرة وضع حدّ لحياتي. كنت راغباً في الموت لكي أنضمّ إلى أبي في الجنة. لم يكن للحياة من دونه طعمٌ ولا إغراء. تناولت عشبةً سامة، وكان كلّ ما جنيتُه حمّى مصحوبة بإسهال. في سن التاسعة ضيّقتُ الخناق على خالي كي يصارحني بحقيقة غياب والدي. "مات في قتال دفاعاً عن شرف العشيرة". رجوته أن يدلّني على قبره. "الشجعان لا يموتون حقاً. يتقمّصون في أولادهم". رفضت الركون إلى هذه الفرضية الشاذة التي تنافي الصواب، وصرت عصيّاً على الاحتواء. وكانت نوبات تمرّدي تزداد حدةً بقدر ما كان أنسبائي يحرّكون جمر غمّي بتلميحاتهم القاتلة:

"والدك نبذته القبيلة. من المؤكّد أنه ارتكب معصية..". أحد جيراني أخبرني أن والدي مات دهساً تحت جنازير دبابة أثناء الهجوم الكبير الذي شنّه رومل. "المسكين كان ضائعاً وسط عاصفةٍ رملية، مع عنزته، فلم يتمكّن من رؤية الدبابة المهاجمة". غضبتُ بشدّة. "لا بد أنه تمّ العثور على جثته، أليس كذلك؟". "وماذا يتبقّى من جثة سُحقت تحت جنازير دبابة؟ وكيف يمكن تمييز لحم عنزة الراعي في المرق المغلي؟". بكيت من الغضب، ولأن هذا الجار كان يضحك هازئاً انقضضت عليه بقسوة. رغبت في دفن البشرية جمعاء تحت الأنقاض.

كان خالي يشعر بضيقٍ شديد، فيضرب كفّاً بكفّ علامة عجز، ويعتذر بدناءة من الناس الذين كانوا يشكون من سلوكي.

كنت أُعتبَر ولداً فاسداً حتى سن الحادية عشرة، وكان من الوارد إدخالي مصحاً نفسياً لو لم يكن أهلي شديدي الفقر. أخيراً، من أجل أن ينعم الكفّر بالهدوء، تعاونت عشيرتي على جمع تكاليف إدخالي المدرسة.

أمام مرآةٍ في حمّامات المدرسة أعلن "الصوت" عن نفسه في داخلي. كان يؤكّد لي أنْ ليس عليّ أن أحمرّ خجلاً من كوني يتيماً، فلا النبي محمد عرف والده ولا كذلك عيسى المسيح. كان صوتاً رائعاً، وله قدرة على امتصاص شقائي كورقة نشّاف. أفضل أوقاتي كنت أمضيها في الإصغاء إليه. وكنت أطلب العزلة أحياناً في الصحراء من أجل ألاّ أسمع صوتاً سواه. وكان يمكنني حتى التحدث إليه من دون أن أخشى سخرية الفضوليين. حينها فهمت أنني كنت منذوراً للأسطورة.

في مدرسة سبها، وبعدها في مدرسة مصراتة، كان زملائي يتشربون كلماتي حتى الثمالة. لم أكن أنا الذي أسحرهم بانتقاداتي اللاذعة، بل "الصوت" الذي يشدو في كياني. لم يكن معلّميّ يتحملونني. كنت أتولّى الدفاع عن الكسالى، وأحتجّ على العلامات المتدنية التي يعاقبونني بها، وأدعو إلى الإضراب، وأثير الفضائح، وأحرّض التلاميذ الفقراء على التلاميذ الأغنياء، وأنتقد الملك من دون تحفّظ. الطرد المتكرر من المدرسة لم يُحدث تغييراً يذكر.

في الكلية العسكرية تأكدت نزعتي إلى الإزعاج والتحريض. ونكايةً بالنظام والوشايات كوّنتُ بعض الخلايا التي زرعتُ فيها بذور الاحتجاج والاعتراض، وحلمت بثورة كبرى ترفعني إلى مصاف ماو تسي تونغ أو جمال عبد الناصر.

– أيها الأخ القائد، سمعت صوتاً يناديني من خلف الباب. الفريق يرجوك الإنضمام إليه، إنه ينتظرك في الأسفل.

"طلائع الموكب بدأت بالوصول"، أعلن لي أبو بكر عند أسفل السلم.

– كم عدد المركبات؟

– اثنتا عشرة، مع خمسين جندياً في أتمّ تجهيز.

– وابني؟

– لن يلبث أن يصل، بحسب المقدّم "طريد".

مجرّد ذكر هذا الاسم يعيد إليّ الحياة.

– هل "طريد" هنا؟

– بلحمه وعظمه أيها الأخ القائد، صدح صوت عن شمالي.

أذى لي المقدّم التحية العسكرية النظامية. كنت فرحاً برؤيته ووددت لو أضمّه بين ذراعيّ. إبراهيم طريد هو المقدّم الأصغر سناً في جيشي، في الثلاثين من عمره، مع عدد لا يحصى من الإنجازات العسكرية في سجله العسكري. قصير القامة، وسيم، شاربان خارجان تقريباً عن المألوف في وجه مراهق، إنه النموذج الذي رغبت في أن يجسّده كل عنصر من عناصر جيشي. لو كان في تصرّفي مئة رجل من طينته لهزمتُ جيوش العالم كله. هيئة شامخة، بزّة من دون أيّ ثنية، حذاء ملمّع حديثاً. يبدو أن لا شأن له بالحرب وفوضاها. الغبار على بزته يلمع كمسحوق سحري. المقدّم إبراهيم طريد هو بالنسبة إليّ اليوم ما كانه "أوتّو سكورزيني"[4] بالنسبة إلى هتلر. جريء وذو ذكاء خارق، كلّفته بمهمات مستحيلة فأنجزها بحماسة نادرة. ضبط المنشقين الأزواد المَاليين، تجنيد مقاتلين موريتانيين، عمليات زعزعة الاستقرار في الساحل، طريد هو الذي كلفته بإنجازها. كما كلفته بنقل بعض أفراد عائلتي إلى الجزائر تأميناً لسلامتهم. لم يخيّب أملي مرة. حماسته، إصراره، وشجاعته تجعله يتقدم بسهولة على الضباط من أبناء جيله. يكفي وجوده بيننا ليشيع جوّاً من الارتياح. حتى منصور فوجئ بنفسه يبتسم.

4 أوتو سكورزيني (١٩٠٨–١٩٧٥) ضابط كوماندوس ألماني اشتهر بعملياته الجريئة أثناء الحرب العالمية الثانية لحساب ألمانيا النازية وفي أغلب الأحيان بتكليف مباشر من هتلر. (م)

– سرت شائعات تزعم موتك، قلت له وأنا أحاذر إظهار فرحي.

– الشائعات مخطئة، أجابني وهو يبسط ذراعيه ليظهر لي أنه يتمتع بصحة جيدة.

– كيف اهتديت إلينا؟

– من يحب يهتدِ في النهاية، أيها الأخ القائد. هالتك هي نجمتي القطبية.

– بجدّ.

– سوء التنظيم لدى ثوار بنغازي يتيح لأيّ مجموعة التسلل خارجاً من دون خشية. تبعتهم حتى المدينة، ومن ثم اندسست بين سوريين حتى وصلت إلى القطاع رقم ٢. واكبني رجال العقيد معتصم حتى النقطة ٣٦، أما سائر الطريق فقطعتها وعيناي مغمضتان.

– هل شاهدت ابني؟

– نعم يا سيدي. إنه يحقّق إنجازات باهرة. صدّ هجوماً في الشرق، دمّر مخازن ذخيرتنا. غادرته وهو يعمل على جمع فرقه. هو الذي أعطاني المركبات الإحدى عشرة التي جئت بها.

– كيف أحواله؟

– على أفضل ما يرام. هو الذي كلّفني أن أبلغك أنه سيتأخر ساعة أو ساعتين، لكنه يسيطر تماماً على الوضع.

رفع الأكواب عن إحدى الطاولات، وبسط عليها خريطة من خرائط قيادة الأركان، ودعانا، أنا والفريق منصور، إلى الاقتراب.

– الوضع معقد، لكنه غير مستعصٍ.

وبقلم تلوين راح يرسم دوائر على الخريطة ليحدّد موقعنا ومواقع الأعداء.

– العدد الأكبر من قوات الثوار متمركز في الغرب. هذا القطاع تشغله ميليشيا مصراتة. قسم يتقدم عن طريق الساحل، والآخر انطلاقاً من سيدي بل رويلح على طريق فرعي في اتجاه التقاطع ١٦٧. أما في هذه الناحية فكل شيء تحت سيطرة تنظيم القاعدة وكتيبة ١٧ شباط... في الشرق، خونة بنغازي يتقدمون على طريق أبو زهيان. القوتان تحاولان بلوغ تقاطع ١٦٧ من أجل عزل بير الحمّة.

– هل اكتشفوا موقعنا؟

– لا أظن.

– ما هي خطتك؟

– لدينا سبيلان لفكّ الحصار. الأول، إحداث اختراق ناحية الشرق، فهمجُ بنغازي يشغلهم التخريب والنهب عن تحصين جبهتهم.

– لا، قال وزير الدفاع، التقدّم من هذه الناحية مجازفة كبرى.

– في كلّ خطوة مجازفة، سيدي الفريق، وكلّ خطوة قابلة للتنفيذ.

– لكن ليس والريّس معنا.

وافق المقدّم، وانتقل إلى الخطة البديلة:

– رُصد بعد ظهر هذا اليوم تراجع تكتيكي على طول هذا الخط البارز الذي يحدّد الجبهة الأولية للثوار. العدو تراجع ما بين كيلومترين وثلاثة كيلومترات نحو الجنوب الشرقي والجنوب الغربي، مما يترك لنا منطقة واسعة نسبياً وخالية نتصرف بها كما نشاء. وبحسب عناصر الاستخبارات فإن محور بير الحمّة – خرب الأكواز يمكن السيطرة عليه.

– ربما كان هذا كميناً، قال منصور. الثغرة ضخمة إلى درجة أن استدراجنا إلى الفخ يبدو واضحاً.

– إن نحن دخلنا في هذا الجَيب يصبح في إمكان العدو الإطباق علينا وإبادتنا. لن يمكننا حتى الانسحاب في حال استولت ميليشيا مصراتة على تقاطع ١٦٧.

– ليس في مواجهتنا جيش نظامي، أصرّ المقدّم، بل مدّ بشري يجتاح كل شيء في طريقه. في الغرب مشّط الإسلاميون المدينة تمشيطاً دقيقاً، وفي الشرق يمكن أن يعترضنا الزاحفون في العمق، رغم الفوضى العارمة في صفوف بنغازي، ونحن نجهل تماماً تشكيلات

قواتهم. إنهم بالآلاف يتنقلون وسط الغبار بحثاً عن مواكب ينهبونها. الجنوب يبقى المخرج الوحيد المتاح لنا.

وافقت على خيار المقدّم، ليس لأنّ حججه لا يمكن دحضها بل لأن حدسي لا يخدعني. أنا الذي اقترحت الانسحاب إلى الجنوب هذا الصباح. إن كنت لم أتذكر ذلك منذ لحظات، فلأنه دليل على أن "الصوت" هو الذي نطق بدلاً مني. ما أقرّره هو ما يريده الله. ألمْ أنجُ من القصف الذي استهدف قصري في باب العزيزية ليلة احتفالي مع جميع أفراد عائلتي بعيد ميلاد حفيدي الأحبّ، والذي راح ضحيته أصغر أولادي سيف العرب وأبناؤه الثلاثة؟ لقد خرجت من تحت الأنقاض من دون أن أصاب بخدش. الأخطار التي نجوت منها طوال فترة حكمي، وسلسلة المؤامرات ومحاولات الاغتيال، كان من شأنها النيل من أيٍّ كان. الله يحرسني، لا أشك في ذلك لحظة. وفي خلال ساعات معدودة سينشقّ الحصار أمامي كما انشقّ البحر أمام موسى، وسأجتاز خطوط العدو، بالسهولة التي تخترق فيها الإبرة النسيج.

– ليس أمامنا سوى انتظار معتصم، قلت مستنتجاً. ما إن يحضر حتى نغادر القطاع.

– الساعة الرابعة هو الوقت الملائم، اقترح الفريق.

– لا مجال لذلك، قلت مقاطعاً. ما من ساعة ملائمة يا أبو بكر. علينا مغادرة وكر الدبابير هذا في أسرع وقت ممكن. قوات التحالف لن تلبث أن تنقضّ علينا بطيرانها.

– أنا موافق، قال منصور.

– لا أبالي سواء أكنت موافقاً أم لا، صحت به. أنا من يصدر الأوامر هنا. تهيأوا لمغادرة المكان. لا حاجة لأن يترجل معتصم من مركبته. ما إن يقترب الموكب حتى ننظم أنفسنا في رتل وننطلق. يجب ألاّ يعرف أحد أنني بين المغادرين.

جمع المقدّم خريطته وطواها بعناية ووضعها في حقيبته.

– مقدّم طريد يمكنك الانصراف، فأنت في حاجة إلى بعض الراحة.

ثم أضفت، فيما أحدج بازدراء الفريق وقائد الحرس:

– إنك ضابط ممتاز. أنت تستحق احترامي.

لم ينسحب الضابط الشاب، وبابتسامة خفيفة قال لي:

– لم آتِ ويداي فارغتان أيها الأخ القائد.

وبتصفيقة من إصبعيه تقدّم جنديان يدفعان أمامهما سجيناً مقيداً يرتدي سروالاً رياضياً ممزقاً عند الركبتين وكنزة نصلت ألوانها، سحنته مسودّة، وبدانته تظهره كنسخة ملطّفة من دبّ. كانت على وجهه آثار كدمات، وعينه متورمة ومطبقة بشناعة تحيط بها هالة بنفسجية اللون. يوحي شعره الأبيض عند الصدغين وفكّه المرتخي أنه في الخمسين من عمره.

ألقيا به عند قدمي، فوقع على ركبتيه، ولاحظت في رقبته جرحاً عميقاً ينزف.

– من هذا؟

قال طريد، فخوراً بصيده:

– النقيب جارود، مرافق اللواء يونس.

– أليس مسئاً نوعاً ما على هذه الوظيفة؟

– أجل. كان هذا الجبان عريفاً، ثم رقيباً أول وسائقاً شخصيا للواء. وقد رقّاه يونس إلى صف الضباط من دون المرور بمعهد عالٍ.

دفعت السجين بطرف قدمي. كانت تفوح منه رائحة كريهة اضطررت معها إلى سدّ أنفي بأصابعي.

– هل ألقيت القبض عليه في مجرور ماء؟

– أقللته معي "أوتو ستوب" على الطريق السريع، أجاب المقدّم بسخرية!

– كنت أسعى إلى الالتحاق بكم يا سيدي، قال السجين متأوّها. أقسم على ذلك.

نظرت إليه باشمئزاز:

– ألأنّ اللواء يونس تخلى عنك؟

– لست ممن يحسب له حساب يا سيدي كي يُجعل مني قضية.

– لماذا خانني؟

– لا أعرف يا سيدي.

– لأنه توهم أنه ستتهيأ له فرصة تسويق نفسه لدى المتمردين، فيحافظ بذلك على موقعه، قال منصور.

– لم يكن لطموحه حدود، أضاف الوزير مزايداً.

هززت مجدّداً المرافق القديم:

– هل ابتلعت لسانك؟

سدّد إليه أحد الحراس ضربةً على رقبته.

– أجب على سؤال الريّس.

ازدرد السجين ريقه مرات عدة قبل أن يجيب بصوتٍ مرتعش:

– اللواء يونس كان حسوداً يا سيدي. لم يكن يحبك. ضبطته ذات مرة في مكتبه وفي يده مسدس يصوّبه نحو صورتك.

– واحتفظت بالخبر لنفسك.

خفض رأسه. كتفاه تنتفضان تحت وطأة نحيبه المتواصل.

– كان في إمكانك أن تحذرني.

– يبدو أن اللواء كان يعده بموقع أهمّ، افترض المقدّم.

سدّد إليه منصور نظرةً ينهاه عبرها عن المشاركة في هذا الحوار.

شخر الخائن، ومسح أنفه بكتفه. لم تكن لديه القوة لرفع نظره نحوي. لكزه الحارس بطرف بندقيته:

– طرح عليك الريّس سؤالاً.

– كنت خائفاً منه، اعترف السجين. أن تكون مرافقاً لعُقاب كهذا، معناه أن تنتظر أن يلتهمك حيّاً من دون إخطار. كان يشمّ رائحة الأشياء على بعد أميال دائرية ويقرأ الأفكار كمن يقرأ في كتاب. ردّ فعله تلقائيّ لدى أدنى شعور بالشك، ولم يكن قلبه يعرف الرحمة. كنت أعيش معه على مضادّات الاكتئاب.

– كيف مات؟

– كالكلب يا سيدي.

– وكيف تموت الكلاب؟ سأل وزير الدفاع. كان عندي كلب مات بفعل الشيخوخة، ومن حوله أبنائي يحوطونه بعاطفتهم. هل هكذا انتهى اللواء يونس؟

– هل صحيح أنه قتل أم إنها شائعة لتبرير اختفائه؟ ليس بالأمر البسيط أن يستقبله نيكولا ساركوزي في الإليزيه. يونس مفاوض مرهوب الجانب. ولأنه بات واثقاً من أنه نجح في إنقاذ نفسه، يكون قد اختار بلداً من بلدان الجنة الضريبية ليتمتع فيها بثروته.

– لقد جرى إعدامه يا سيدي، ما في ذلك شك.

– هل كنت حاضراً؟

– لا يا سيدي.

– لماذا تجزم إذن؟ ففي كل يوم تطالعنا كمية من الاختلاقات، حتى إني سمعت أنني أنا نفسي وراء اغتيال اللواء. أمر كهذا يفرحني كثيراً، لكنه غير صحيح.

– لم يكن هناك لكنه يعرف طرفاً من الخبر. أشار المقدّم رغم تحذير قائد الحرس إياه بالإنضباط. (قرفص أمام الخائن، وشدّه من أذنه ليجبره على رفع رأسه). أخبر الريّس بما جرى يا وجه الجرذ. كنت إلى جانب سيدك حين تمّ استدعاؤه في تلك الدعوى الوهمية. اذكر تفاصيل ما شاهدت وسمعت ذلك اليوم.

– أنا عطشان، تأوّه الخائن.

أرسل الوزير أحدهم ليأتيه بالماء. وبعدما روى الخائن عطشه اندفع يسرد بلا انقطاع: فبحسب ما ذكره، لاحظ اللواء عبد الفتاح يونس أن معدل القوة يميل بقوة لمصلحة كتيبة ١٧ شباط التي يقودها الإسلامي عبد الحكيم بلحاج، الناشط الدؤوب الذي أمضى ست سنوات متعفناً في سجني. لكن المتمردين لاحظوا أن قدراته العملانية تتضاءل، فعمدوا إلى إقصائه، رغم الدعم الهائل الذي كان يقدمه لهم، إلى مرتبة مستشار بسيط لدى المجلس الوطني الانتقالي. شعر اللواء أن هذا الوضع سيخنقه، فقرّر أن يتولى الأمور بيده، لكنهم لم يتركوا له سوى عينيه للبكاء. الفرنسيون لم يكونوا يحبونه: لقد استخدموه كبيدق على رقعة شطرنج المساومات وكانوا جاهزين للتخلي عنه في أي وقت بعدما أضحى غير ذي شأن ومن دون أي تأثير في الأحداث. أما الأميركيون فقد تركوا لأنفسهم رسم نهاية مصيره: كان اللواء، في أسوأ الاحتمالات، ميتاً مؤجلاً، وفي أفضلها مجرم حرب يُسلّم إلى عناية المحكمة الجنائية الدولية.

– اختصر، أمره منصور. قل لنا كيف مات سيدك.

– سيأتيك الحديث يا سيدي.

– لسنا ملزمين بانتظارك أيها القذر، انتقل مباشرةً إلى الوقائع.

تنحنح الخائن وأضاف:

– اتُّهم اللواء بأنه عميل مزدوج، يعمل لحسابك يا ريّس، ولحساب ساركوزي. كنت إلى جانبه حين تلقّى مذكرة التوقيف الموقّعة من عبد الجليل[5] نفسه. كان في سورة غضب شديدة ويصرخ بأنه تعرّض للخيانة. رافقته إلى المحكمة العسكرية حيث أطلعوه على لائحة الاتهامات الموجهة إليه. احتجّ اللواء، ثم قال إنه لا يعترف بشرعية المحكمة وسعى إلى الالتحاق بالقيادة العامة. أحد أقربائي من الذين كانوا قد انضموا إلى الإسلاميين، وكان حاضراً

في المحكمة، نهاني عن مرافقة اللواء ونصحني بالعودة عند خالتي في طرابلس وعدم الظهور في الشارع. لدى خروج اللواء من المحكمة اعترضه الإسلاميون ونقلوه في سيارة ذات دفع رباعي إلى حيث تمّ إعدامه في اليوم ذاته.

5 مصطفى عبد الجليل، رئيس المجلس الوطني الانتقالي.

– كيف؟

– نسيبي الذي التحق بي عند خالتي في طرابلس كان من بين الخاطفين، وقد أخبرني أن اللواء حاول القفز من سيارة الدفع الرباعي، فضربوه على رأسه واقتادوه إلى أحد العنابر لاستجوابه. عذبوه بالكلاّبات وبنافثة النار، وقطعوا أصابع رجليه وفقأوا عينه ومن ثم بقروا بطنه بمنشار معادن.

– قريبك شاهد العديد من الأفلام الدموية، قال منصور مرتاباً.

– سجّل المشهد على هاتفه الجوال وعرض عليّ مشهد مقتل اللواء. أمضيت ثلاثة أيام وأنا أتقيأ وثلاث ليال وأنا أصرخ في نومي. لا أزال حتى الآن أرتجف... (رفع رأسه فجأةً وتابع شاحب الوجه) هؤلاء ليسوا بشراً يا ريّس. كان يكفي أن ألتقيهم في الطريق حتى يقشعرّ بدني. يزعمون أنهم مسلمون، وبالكاد يتركون شيئاً للشياطين. يقتلون الأولاد كمن يسحق الذباب. لم أشاهد أرهب من نظراتهم، تخالها تسبر الموت نفسه. حين اقترح عليّ نسيبي الالتحاق بفرقته وافقت بلا تردّد، وإلا لانتزع أحشائي مباشرةً وبحضور خالتنا من دون أيّ رادع لو أنني تردّدت لحظة. لكني لم أكن أتصوّر نفسي بين هؤلاء الوحوش. أموت من الخوف لمجرد التفكير بأنني سأتقاسم معهم الطعام. في الليل، أثناء رقاد نسيبي، تسللت خارجاً وأطلقت ساقيّ للريح من دون أن أنظر ورائي. كنت أحاول الوصول إلى سِرت من أجل الالتحاق بصفوفكم يا ريّس، لكن المدينة كانت تعجّ بالثوار الذين كانوا يطلقون نيران رشاشاتهم عشوائياً على كلّ ما يتحرّك. همت على وجهي أياماً وليالي واختبأت في المغاور، وحين التقيت المقدّم على الطريق السريع كنت كالخارج من كابوس رهيب.

– لا تزال وسط الكابوس، وعده المقدّم.

– يا ريّس، توسّل السجين وهو ينتصب على ركبتيه، لم أخنك. منذ البداية لم أكن أفكر إلا بالالتحاق بك. إنها الحقيقة. أقسم على ذلك.

– لا وجود للحقيقة. الناس يؤمنون بما يلائمهم، وروايتك لا تلائمني.

جرّ نفسه إلى قدميّ.

– إني أجلّك أكثر من أبي ومن أجدادي، أيها الأخ القائد. لديّ أربعة أولاد وزوجة نصف مجنونة، اعفُ عني حبّاً بالنبي. أريد استعادة موقعي بين جنودك، وأعرف كيف أكون أهلاً لثقتك.

ثقة؟

يا لهذه المخادعة الفظّة!

لقد أسقطتْ هذه الكلمة السامّة من قاموسي قبل أن أتعلّم المشي. الثقة موت صغير. كان عليّ أن أكون حذراً من الجميع، وخصوصاً من أوفى الأوفياء لي لأنهم الأكثر إلماماً بنقائصي.

من أجل أن أضمن طول العمر، لم أكن أكتفي بمصادرة العقول ولا بإفساد الضمائر – كنت على استعداد للتخلص من شقيقي التوأم كي لا أُتَّهم بمحاباة الأخوة.

مع ذلك، ورغم الإجراءات الصارمة التي اتّخذتها والمبالغة في الحذر والتطهيرات التي قمت بها، تعرضت للخيانة. وعلى أيدي أوفى أوفيائي. اللواء يونس الذي كنت أعتبره روحي المتفانية، والذي كنت أحبه أكثر من أخ لي، هو الذي كان يتباهى بأنه الأب الروحي لابني، ويذكرني في جميع صلواته، ويذهب إلى حدّ اعتبار زلّات لساني إشارات مشفّرة، خانني. كيف لا يمكنني اعتبار نهايته المأسوية عقاباً إلهياً؟ بتخلّيه عن بركتي، سعى إلى نهايته. ليس ما أشعر به حياله احتقاراً، بل شقاءً متفشٍّ ونوعٌ من الشفقة التي لا أعرف كنهها والتي تريحني وتشدّ من عزيمتي في الوقت نفسه.

– أتوسل إليك، ناح الخائن. كنت أحاول الالتحاق بك، قسماً بأغلى ما لديّ في هذا العالم.

– الشيء الوحيد الغالي المتبقي لك في هذا العالم هو رأسك، والذي لا يساوي فجلة، قلت له.

أصدرت أوامري إلى جنديين:

– خذاه مباشرةً إلى الجحيم.

حاول الخائن مقاومة الأذرع التي تحيط به، وأخذ يتلّوى ويتخبط، ووجهه متشنج. جرى اقتياده بقسوة نحو الباحة. سمعته يتوسّل إليّ باكياً. تأوهاته طالت مصحوبةً بصيحات رعب، بقدر ما كان يتقدم في الليل، ثم ومن بعد ما استنفد جميع التوسلات، بدأ بإطلاق الشتائم:

– لست سوى مجنون يا معمَر، مجنون سفاح متعطّش للدماء يجب ربطك وتقييدك. ملعون هو البطن الذي حملك واليوم الذي ولدت فيه... أنت لست سوى ابن زنا يا معمَر، ابن زنا...

لا بدّ أن أحدهم كتمَ أنفاسه لأن صوته انقطع فجأة.

وسط الصمت الذي أعقب ما جرى، ظلت كلمة "ابن زنا" تتردّد في رأسي بأصداء عديدة ممزّقة، ضخمة بحيث أن "الصوت" الكوني، الذي كان يعرف جيداً كيف يخاطبني في وحدتي، تقوقع على نفسه كحلزون مجفل.

في القاعة، كان منصور والوزير والمقدّم ينظرون إلى الأرض مطأطئي الرؤوس، مثقلين بالإهانات البذيئة التي وجّهها إليّ ذاك الشقيّ.

صعدت إلى غرفتي أهضم الإهانة.

ابن زنا، ابن زنا، ابن زنا...

الإهانة تتقافز في حركات ارتدادية على جدران غرفتي، وتخترقني من جهة إلى أخرى، ناشرةً في لحمي ملايين السموم. وحدها كلمة "ابن زنا" هي التي أسمعها إن دوّى انفجار في المدينة، أو صفق باب في الأسفل، أو سقط غرضٌ أرضاً. يمكنني تطيين أذنيّ أو تفجير طبلتيهما فلا أسمع هذه الكلمة تنوب عن أصوات الحرب التي تلعلع في الخارج.

ومع ذلك، كانت هذه الكلمة المقيتة التي تترصّد أرقي حاضرةً دوماً لتحاصرني فوق وسادتي. حين يسكت الضجيج في الخارج وتنسدل الستائر لتتركني وحيداً مع نفسي، وتضطجع خليلاتي منتشيات بما غرسته فيهنّ من بذور، ويذوب فان غوغ في لوحته، ويتّحد الصمت بالظلمة في قصري، تتسلل هذه الكلمة تحت ملاءاتي وتبقيني مستيقظاً حتى الصبح أحياناً.

لهذه الكلمة حكاية تركت أثرها السيئ على تاريخي. كنت متمدداً على سريري عشيّة تبلّغي خبر ترقيتي إلى رتبة نقيب، محتاراً بين أن أحتفل بالمناسبة في بيتي مع زوجتي ومجموعة أصدقاء، أو وسط قبيلتي في فزّان. وأثناء رقادي تجلّى لي فان غوغ في زيّ فارس عالقاً في عمق بحيرة جليدية... في الصباح، اعترضتني سيارة جيب أمام مدخل بنايتي، وبلّغني سائقها، وهو شاب أصهب في ثياب مهملة، أنه مكلّف باصطحابي إلى مركز القيادة العامة. ظننت أنّ احتفالاً ما في انتظاري أو شيئاً من هذا القبيل، فقفزت إلى جانب السائق وأنا أمسّد سترتي وأسوّي قبعتي. في مركز القيادة العامة أشاروا عليّ بالانتقال إلى المبنى ب، وهو بناء كئيب يضمّ مكاتب المخابرات الخاصة لجلالة الملك إدريس السنوسي. ولأني لم أكتم يوماً رغبتي في تولّي منصب في سفارة بلادي في بلد من بلدان النعيم، فقد ارتقيت درجات السلم حتى الطابق الثالث يحدوني أملٌ كبير، وأنا أحاذر أن أتعثر بالسجاد.

استقبلني رقيب أسوأ استقبال. بدت لي عجرفته مطابقة للهيئة التي يطالعها أيّ خادم ذليل في حضرة سيّد يقمعه. لكني لم أبالِ. أدخلوني إلى قاعة انتظار بسيطة فيها منضدة صغيرة عتيقة وصفّ من الكراسي الحديد تقشّر طلاؤها.

بقيت هناك أعاني الملل ثلاث ساعات بطولها، من دون أن يدخل عليّ أحد ليتفقد إن كنت ميتاً أو على قيد الحياة. حين ظهر الرقيب مجدداً كان الغضب على وشك أن يخرجني عن طوري.

كان المقدّم جلال السنوسي ينتظرني في مكتبه، بوجهه الأحمر المجدور، وأذنيه الضخمتين والشعيرات المعدودة على رأسه. وكان وجهه الخنزيري يدلّ على شراهته التي لا ترتوي، لكن كان من شأن نظرته أن تصيب بالكزاز أيّ نعجة جرباء لمجرد أن تمسّها مسّاً خفيفاً. كان يمثّل في نظري كلّ ما يؤسفني أن أراه في ضابط: الكرش. كان يحقّر بشكل فظّ السجايا العسكرية التي من المفترض أن تمنحه إياها بزته.

لم يقم بيننا انسجام قطّ. كنت أعرفه من أيام الأكاديمية، حين كان مدربي في السنة الثانية كتلميذ ضابط. كان يدرّسنا الطوبوغرافيا في حين أنه كان عاجزاً عن الاستدلال على الأرض بالخريطة والبوصلة. في الواقع، كانت مهمته في الأكاديمية تقتصر على تنظيم المحاضر في من يتصرّفون بفظاظة، وكتابة التقارير اليومية عن تصرفات المنتسبين الجدد وتحركاتهم. كان يجسّد الوشاية الرسمية.

لم يفاجئني أني وجدته في مكتب في الطابق الثالث من المبنى ب، غير أني أدركت سريعاً أن حلمي بمركز في الخارج قد تبخر.

لم يدعني المقدّم جلال السنوسي إلى الجلوس. رفع كرشه الضخم ليتمكن من الجلوس، وراح يقلّب بإصبع متقزز بضعة مستندات تشكّل ملفاً، ومن بعد ما حك أنفه حدّق فيّ بإمعان:

– هل تعلم لماذا استدعيتك أيها الملازم أول؟

– نقيب، صحّحت له.

– ليس بعد. لن تنال الترقية إلا بعد شهرين، مما يمنحني فرصة الاعتراض.

– تعترض على قرار أيها المقدّم؟

– بالتأكيد. هذا في صلب الصلاحيات التي يمنحني إياها مركزي. لأجهزة استخبارات صاحب الجلالة الحق بإلغاء حتى القرارات الصادرة عن السلطات العليا إن كانت تعرّض سلامة المملكة للخطر.

كان يبالغ. لم يكن سوى مسؤول ثانويّ يسجن نفسه في حجرة ضيقة حيث يمرّ به الجنود المتحدّرون من بيئات متواضعة فيثير ارتباكهم وخجلهم. متزلّف ينسحق بحقارة أمام من هو أقوى منه، ويبدي استعداداً لإرسال بريء إلى حبل المشنقة لكي يظهر لأسياده كم هو متيقّظ وساهر.

لأن اسم عائلته يتوافق مع اسم عائلة الملك، كان المقدّم جلال السنوسي يزعم، كالملك أيضاً، أن أصله من الجزائر وأن علاقات وثيقة تجمعه بالأمير ولي العهد.

وفي الحقيقة لم يكن لديه من ألقاب الشرف أكثر مما لدى ابن آوى خبيث وحقود. له يدّ في كل عمل مشبوه، شهوة عينيه إلى الطعام تفوق طاقة بطنه على الاستيعاب. كان يتلقى الرشاوى في مقابل أتفه الخدمات، ويتموّن على حساب العرش من دون أن يضطر إلى إنفاق فلس واحد، إلى حدّ أنه كان يتزود بالمؤن التي كان يُبقي المسؤولين عنها تحت رحمته: كل مساء كانوا يأتونه بما يطعم عائلة بكاملها على مدى شهر. طيور، خروف بكامله مسلوخ ومقطّع على يد جزار ماهر، علب فاكهة وخضر، صناديق معلبات. وكل صباح كان الجائعون يتدافعون حول صناديق نفاياته التي أطلق عليها بعض الظرفاء اسم "مطعم المعجزات".

كنت أكرهه حتى الموت، وكان يعلم ذلك.

– أنت هنا لأن المجسّ الذي في فمك هو من الطول بحيث يصلح أن يكون حبلاً لشنقك، صاح بي وهو يرمي الملف بقوة على مكتبه.

لم أبدِ ردّ فعل. لو كان هذا الخنزير السمين يملك إثباتات ضدي لكان أحالني مباشرةً إلى فصيلة تنفيذ الإعدام. كنت على يقين أنه يحاول خداعي فيكذب عليّ من أجل أن ينتزع مني الحقيقة.

– جعلتُ عيني عليك باستمرار يا معمّر.

– أيهما أيها المقدّم، العين الحاسدة أم العين المخاتلة؟

– كلتاهما، أيها الملازم أول، هما اللتان ستعملان على أن تلقى حتفك. أنا على علم بأحابيلك أيها الإبليس. تحشو رؤوس الأغبياء بنظرياتك التافهة عن الثورة، وتتجرأ على إطلاق كلام مسيء بحق النظام الملكي الذي جعل من متشرد مثلك ضابطاً. لا تزال تحمل على جلدك رائحة روث الجمال الكريهة إن شئت أن تعرف.

– ليس المهم من أين جئنا، المهم هو الطريق التي سلكناها لنصل. لم أتلقَّ خدمة من أحد. درست من دون أيّ منحة وكوّنت نفسي بنفسي. رتبتك لا تمنحك الحق بإهانتي، أيها المقدّم.

– تمنحني حق دوسك. لو كنت مكانك لما لعبت دور البطل. ليست لديك خامة الأبطال. فم كبير ثرثار، هذا أنت. متحدث جيد ينتهي إلى تصديق هذيانه. لقد أخبروني عن اجتماعات سرية تعقدها هنا وهناك، وتنشئ خلايا من البلهاء في وحدتك العسكرية، أليس كذلك؟

– أتحداك أن تأتيني بإثبات واحد، أيها المقدم. إنك توجّه إليّ اتهاماً بالغ الخطورة. أنا ضابط منضبط وكفؤ. أقوم بواجبي ضمن الأصول وأعرف حقوقي. لا أحوّل حصص رجالي، ولا أفرض فلساً واحداً على من أقدّم لهم مساعدة.

توتّر وكاد يمزّق الأوراق بين يديه.

– إلامَ تلمّح أيها الملازم أول؟

– أنا لا ألمّح. أنا أصرّح، وعلى استعداد للدفاع عن أقوالي أمام المحكمة. هل تقوم أنت بالأمر نفسه؟

– لا. لا. عد إلى ما كنت تقوله. ما حكاية الحصة والفلس؟

– أتريدني أن أقدّم لك توضيحات إضافية، أيها المقدّم؟ الكلّ على علم بتجارتك غير المشروعة. أما بالنسبة إلى من حرّضك عليّ، فلا علم لي بغايته من ذلك، لكني لن أترك نفسي تداس. ليس لديّ ما ألام عليه. ادعاءاتك مخالفة للصواب بقدر ما هي خطرة. هل تدرك ما تقوله؟ أتقول إنني فوضوي مخلّ بالنظام؟

صحت عمداً من أجل زعزعة صموده.

تمنّى عليّ أن أهدئ من روعي ودعاني إلى الجلوس. رفضت وظللت واقفاً، أرتجف من الغضب. كنت أعلم أنه لم يكن في الملف الذي كان يحرق له أصابعه ما يستحق الذكر، والذي لم يكن على الأرجح ملفّي.

مسح عرقه بمنديل، وأنفاسه تضطرب.

كنت متمكناً منه.

– أطالب باسم الواشي. عليه أن يدافع عن افتراءاته أمام المحكمة العسكرية.

– هوّن عليك، قال المقدّم. إهدأ الآن. لقد استدعيتك لأني أهتم لأمرك. يقولون إنك تنساق إلى خطابات انفعالية.

– من هم هؤلاء الذي يقولون؟

– أقوم بواجباتي أنا أيضاً. ليس مسموحاً لي ترك أيّ شيء للصدفة. لقد سمعت أنّ...

– أنّ ماذا؟

خرج المقدَم عن طوره.

ومن أجل الإجهاز عليه أديتُ التحية العسكرية وغادرت المكتب واعداً بأعلى صوتي برفع القضية أمام القاضي العسكري. في الواقع، كنت على درجة من الخوف بحيث أني قمت بما قمت به من أجل بلبلة أفكاره. وكان أن لحق بي رقيب في الممر:

– معمّر القذافي، تفضّل إلى مكتبي.

لم يُلقِ عليّ التحية. وقف أمامي وسترته فوق حزامه، وكفّاه مرفوعان، في مخالفة صريحة للنظام. إن الوقاحة المتغطرسة لهذا المرؤوس تلامس انتهاك المحرمات بالنسبة إلى شخص مثلي بالغ الحرص على النظام. لا يكفي أنه دعاني باسمي من دون رتبتي، بل أصدر إليّ الأمر تقريباً بأن أتبعه إلى مكتبه. كدت أختنق من الغيظ.

هزيل الجسم، أشقر الشعر، عيناه زرقاوان وفمه شبيه بفم فتاة. تبدو عليه سمات أصحاب النعمة، وقد تربّى، كالذئب الصغير، على لبن البورجوازية الليبية القديمة التي يعهد إليها بخدمة جلالته، من أجل أن يتعلم دوس الشعب المسكين بالأقدام. سبق وصادفت عدداً منهم في مدرستي الثانوية وكان صلفهم المتضخم يكاد يدفعني أحياناً إلى ارتكاب جريمة قتل. إن الحقد الذي كنت أضمره لهذه الفئة من الموتورين المذهّبين هو الذي أوحى إليّ بأساس انتقاداتي اللاذعة. كنت، كل مرة أصادف أحدهم في الطريق، أتفل في قميصي لأبعد عني العين الشريرة.

كانت لدى الرقيب نقطة واحدة يسعى إلى حلها:

– ثمة مشكلة صغيرة في مسألة نسبك يا معمر.

– أية مشكلة؟ ثم خاطبني بحضرة الملازم أول حين تتوجّه إليّ بالحديث. نحن لم نكن نرعى الماعز معاً.

– أنا لم أكن يوماً راعي ماعز، أجابني في تلميح خبيث. لا أجد أنّ من الضروري تذكيرك بأن طبيعة الوظيفة تتقدم على الرتبة أيها الملازم أول. في هذا المكتب أنا الذي يتولّى زمام الأمور سواء أعجبك ذلك أم لم يعجبك. لقد كلفني رؤسائي التأكّد من صحة المعلومات الواردة في بطاقتك البيانية. عليك أن تعلم أننا كلما تقدمنا في الرتب بات علينا تولي مهمات على درجة عالية من الأهمية. وبناءً عليه يصبح لزاماً تجنّب الوقوع في الخطأ في موضوع كلّ من يتولّى وظيفة...

– ما المشكلة؟

– والدك...

شعرت بالإهانة. لا يكفيني أني تعرضت للتوبيخ على يد ضابط صفّ بل عليّ أيضاً أن أخضع للاستجواب في موضوع عائلتي.

– مات في مبارزة صوناً للشرف.

– ليس هذا ما دوّن على بطاقتك. فالتحقيقات التي قمنا بها في قبيلتك تشير إلى أنك ولدت من أب مجهول، حتى إن بعضهم كانوا أكثر صراحةً فذكروا أنك ولدت من أب كورسيكي يدعى ألبرت بريزيوزي، وهو طيار أُسقطت طائرته مقاتلة ألمانية عام ١٩٤١ فتمّ إنقاذه والعناية به في قبيلتك.

انطلقت قبضتي من تلقاء نفسها مسدّدةً لكمةً إلى وجه الرقيب، فوقع على ظهره، مهشّم الأنف. لم يتسنّ لي الوقت للإجهاز عليه، إذ انقضّ عليّ أربعة رجال ورموني أرضاً. المقدّم جلال السنوسي كان واقفاً في فتحة الباب يضحك هازئاً، ويداه مشبوكتان على صدره. كان في قمة السعادة، إذ أثبت أنه كان أشدّ حذقاً مني، فقد نجح في نصب فخٍّ لي، وما استدعائي إلى مكتبه سوى محطة أولى في خطته التي كانت تقضي بإفقادي رباطة جأشي وتهيئتي لردّ كهذا على استفزاز مرؤوسه.

– ألم أقل لك أيها البدوي إنني أعارض ترقيتك؟ هل صدقتني الآن؟

وأنا الذي كنت أعتبره مجرّد جنديّ إضافيّ متحمّس، في رأسه كتلة شحم عوضاً عن الدماغ، فإذا به يتفوق بكثير على الشيطان نفسه[6].

6 إثر عملية الإصلاح التي قدتها بنفسي لتطهير مؤسسات الجمهورية من النظام الملكي الطفيلي، أجبرت المقدّم جلال السنوسي على حفر قبره بيديه.

تمّت إحالتي إلى المجلس التأديبي. ومن بعد التوقيف الإلزامي وتأجيل تدرّجي إلى رتبة نقيب، عدت إلى بيتي في فزّان لتسوية حساب قديم مع قبيلتي.

فزّان عدائية ومثيرة للشفقة، هي مجسّم للجحيم، ارتمى عليها الغوص، لعدم توافر الأفضل أو للعنةٍ حلّت بهم، كما يرتمي ضبع جائع على بقايا جيفة. كان زمن كنت أعتبرها فيه نسخةً عن الجحيم نفسه.

فزّان هذه التي أنهكها العطش والتيه كانت صورةً عني. كنت منكشفاً وتافهاً كهذه المنبسطات التي عرّتها الريح فلم يتبقّ فيها سوى الحصى والصخور التي تُوسّع باستمرار دائرة خرائبها.

كنت جالساً تحت شجرة أكاسيا، أفكّر بالبدو، وبقطّاع الطرق، والحجّاج، والفارّين، ورجال القوافل، والمغامرين، والتائهين، والأسياد والخدم الذين استظلوا هذه الشجرة المكسوة بالأشواك، متسائلاً عن الطريق التي سلكوها بعد استراحتهم وإن كانوا جميعاً قد أدركوا غاياتهم.

كنت في أشدّ حالاتي تعاسةً، شقياً كالظل النحيل الذي يخطّ الرمال، ضائعاً كالجذور الغليظة التي تتشابك حولي وهي لا تدري أين تدفن آلامها.

شدّة القيظ حولي لا تقارن باللهب الذي يحرق روحي.

ماذا جئت أطلب في الصحراء؟

زهد الصمت أم احتضار الزمن؟ لم يكن لي شيء هناك. نقاط استدلالي لم يكن لها من الثبات أكثر مما للسراب الذي بدأ يتكوّن في البعيد. هل جئت لأستمع إلى "الصوت" أم لأخرس صوت الرقيب؟ لا هذا ولا ذاك بقادر على بلوغي وسط ضوضاء كبتي. وكبهلوان الحبال كنت أتأرجح في الفراغ، موقناً أن الارتفاع سيكون كارثياً عليّ بقدر الانحدار.

أمضيت النهار بطوله مسنداً ظهري إلى جذع الأكاسيا وقد انضم خالي إليّ بعدما تعب من طول انتظاري. قال لي:

– لماذا لا تزال هنا يا معمّر؟

– وأين تريدني أن أذهب؟

– عد إلى منزلك. مضت ساعات وأنت تتحمّص في حرّ الشمس. هذا مضرّ بصحتك. قد تصاب بضربة شمس.

– كأنّ هذا هو أهمّ ما في الأمر.

– هل صحيح ما يقولون من أنه تمّ طردك من الجيش؟

– جرى تسريحي.

– وكيف حصل ذلك؟

– ضربت جندياً.

– ضربت جندياً؟

– كنت على استعداد لضرب الملك نفسه.

– ماذا دهاك يا بنيّ؟

– لست ابناً لأحد.

استدرتُ نحوه.

ظهره محنيٌ تحت وطأة السنين، وجهه كهالة من غبار، كان خالي يبدو لي كخرقة معلّقة إلى سارية.

الشقاء قضمه حتى العظم، ولم يترك له سوى هاتين اليدين العتيقتين رأفةً بمصيره.

فاجأته:

– من هو ألبرت بريزيوزي؟

رفع إصبعاً إلى خده، وخفض جفونه، وفكّر طويلاً:

– هل هو من أسمائنا؟

– هو اسم مسيحي.

– لم ألتقِ مسيحياً في حياتي.

– حاول أن تعود بذاكرتك إلى زمنٍ بعيد، حين كان المسيحيون يدخلون بيوتنا من دون استئذان.

– المستعمرون كانوا يفضّلون المناطق القريبة من البحر. الصحراء لم تكن تلائمهم.

وقفت كي أبزّه طولاً، فبدا لي أصغر من قزم.

– أتريد أن توهمني أنّ ما من جندي كافر غامر بدخول مناطقنا؟ ثمة مواقع لا تزال تحمل آثار دبابات القيادة العامة للقطاعات الألمانية في الصحراء الليبية. هناك هياكل مصفحات على بعد أقل من ثلاثة كيلومترات من هنا. كنتُ قد أصبحتُ ربّ عائلة عام ١٩٤٠، ولا بدّ أن تكون قد التقيت مسيحياً في طريقك. هارب من الجيش أو جريح آوته القبيلة بدافع من رأفة الإسلام.

أومأ برأسه نافياً، وجبينه تكسوه التجاعيد.

– ألا تذكر أن طائرةً أصيبت في معركة جوية وأنها سقطت في القطاع عام ١٩٤١؟

ومن جديد أومأ برأسه نافياً.

– قائد الطائرة لم يُقتل. هُرع أفراد من قبيلتنا لمساعدته وخبّأوه وعالجوه... من المستحيل أن تكون قد نسيت حادثةً من هذا النوع. كان فرنسياً، من كورسيكا...

– ما من طائرةٍ سقطت عندنا لا أثناء الحرب ولا قبلها ولا بعدها.

– انظر إليّ!

هدر صوتي كدويّ انفجار:

– هل صحيح أنني ابن زنا، ثمرة نزوة كورسيكيّ نذل كان يمرّ في هذه الأرجاء؟

فجاجة كلامي دفعته إلى زمّ رقبته. لم يكن من عاداتنا التفوّه بكلام فظّ في حضرة من هم أكبر منا سناً. لكن خالي لم يُبدِ احتجاجاً. قدّر سورة غضبي فوجد نفسه غير قادر على احتوائها. زلّ لسانه حين قال متنهداً:

– لست أرى ما تلمّح إليه.

– وهل ترى أبعد من طرف أنفك؟ هيا. صارحني بالحقيقة. هل صحيح أنني ابن غير شرعي لوالد كورسيكي نذل؟

– من أخبرك بهذه الترهات؟

– هذا ليس جواباً.

– والدك مات في قتال دفاعاً عن الشرف. قلت لك ذلك ألف مرة.

– في هذه الحال، أين قبره؟ لماذا لم يُدفن في مقبرتنا مع موتانا؟

– أنا...

– إخرس. أنت لست سوى كاذب. جميعكم كذبتم عليّ. ما من سبب يدعوني إلى أن أمنحكم أدنى ثقة. إن كان والدي لا يزال على قيد الحياة فسأعثر عليه ولو قلبت كلّ حجر على وجه الأرض. وإن كان ميتاً فسأعثر على قبره. أما بالنسبة إليكم أنتم جميعاً، فسأقصيكم عن قلبي، وسأُمضي بقية أيامي ألعنكم إلى أن يصيح بي الله "كفى!".

من يومها انقطع الكلام بيني وبين خالي انقطاعاً تاماً.

بعدما أطحتُ الملك وأعلنتُ الجمهورية، عدت ورأسي يضجّ بالصخب، لأحتفل بثورتي في قبيلتي. عدت لأثأر من قبيلتي. لقد أخفوا عني سرّاً سأثبت لهم أني تجاوزته. فزّان بدّلت هيئتها تبديلاً تامّاً هذا الصباح، فبدا عراء الصحراء كما لو أنه صفحة جديدة جاهزة لاستقبال حكاية أسطورتي المتنامية.

متربّعاً في خيمة رئيس القبيلة، وضحكتي أعلى من الهلال فوق المآذن، أستمتع بالحماسة التي أثيرها في أبناء قبيلتي. لم يعودوا ينظرون إليّ بتعالٍ، فقد جاؤوا يعفّرون الجبين عند قدميّ. الأولاد كانوا يركضون في كل اتجاه، متحمّسين لحضوري، والنساء يراقبنني من وراء خدورهنّ، والرجال تأكلهم الغيرة.

شاركت أقربائي وبعض رفاق السلاح شرب الشاي وأنا في بزّتي العسكرية كأمير في حلّة أبهته. كانت الصحراء تردّد صدى ضحكاتنا، والبدر يزيّن كبد السماء المتوهّجة وسط النهار.

ظلّ خالي خارج الخيمة، لا يدري إن كان عليه أن يفرح بعودتي أم يعاني منها. لم ألتفت إليه. لم يعد يهمني إن كنت ابن زنا من رجل كورسيكي أو ابناً لرجل طيب.

كنت ذرية نفسي.

ووالد ذاتي.

هل نحن جميعاً أولاد آبائنا؟

عيسى المسيح هل كان ابن الله أم ثمرة اغتصاب جرى التكتم عليه أم نتيجة مغامرة غرامية متهورة؟ ما همّ؟ عيسى عرف كيف يخلّد حياته الفتية، وكيف يحوّل درب الصليب دربَ تبانة، ويجعل من اسمه جواز عبور إلى الجنة. ما يهمّ هو ما نخلّفه وراءنا. كم من فاتح عظيم أنجب ملوكاً خاملين؟ كم من حضارة انقرضت ما إن تولاها وارثون محدودو الأفق؟ كم من عبد رازح في القيود حطّم سلاسله ليبني إمبراطوريات عظيمة؟ لم تكن بي أيّ حاجة إطلاقاً لأعرف من كان والدي ولا البحث عن قبرٍ علَمٍ مجهول. كنت معمّر القذافي. الكون بدأ بالنسبة إليّ صباح استوليت على إذاعة بنغازي لكي أعلن لشعبٍ هاجع أنني مخلّصه وخلاصه. سواء كنت ابن زنا أو يتيماً، فقد ارتبط بي مصير أمّة وأصبحتُ شرعيتها وهويتها. من أجل ميلاد حقيقة جديدة لم يعد لدى آلهة الأساطير ولا أبطال التاريخ ما أحسدهم عليه.

كنت جديراً بألاّ أكون سوى نفسي.

كنت منعزلاً في غرفتي أقرأ القرآن حين سقطت قذيفة على القطاع رقم ٢، تبعتها ثانية... ثم ثالثة هوى معها زجاج النوافذ وتحطم على الأرض في رنين مرعب. القصف المعلن لقوات التحالف انطلق. خرجت إلى الممرّ. في الطبقة السفلية كان أحدهم يصرخ مطالباً بإطفاء الأنوار وعدم الخروج إلى الباحة. الشموع القليلة التي كانت تنير الصالة في الأسفل أُطفئت سريعاً. قذيفة رابعة سقطت غير بعيد عن المدرسة التي اتخذناها مقراً للقيادة العامة. نوع من العصبية أصابني وأثار فضولي. أريد أن أشاهد دكّ مدينتي، فقفزت درجات السلم المؤدي إلى المصطبة أربعاً أربعاً.

كنت قد هيأت نفسي لمشهدٍ عظيم، لسماء تشجّها شهب مضيئة وتزيّنها هالات نيران هائلة كشموس متشظية، مع أنوار كاشفة مسلطة على بؤر الخطر، وجنود يشنّون هجوماً مضاداً، وسيارات إطفاء تهرع لنجدة الضحايا المنكوبين، وألسنة لهب تسطع في كل الجهات – فإذا ما طالعني كان نوعاً من فولكلور مفجع بقدر ما هو ساذج، إذ لم أرَ سوى مدينة خانتها شجاعتها واستسلمت لجنون الطائرات التي تُسيّر من دون طيار، راقدة في غبارها كمومس في ملاءاتها القذرة. وفي ما عدا القذائف المنهمرة من سماء مبهمة المعالم، والأهداف التي تندثر في الدخان كأسمال تذروها الرياح، كانت سِرت تدمي الفؤاد كأنها هفوة تاريخ. لا ضوء سيارة، لا صفارة خطر، لا طلقة بندقية تُسمع عن سطح. لا شيء سوى أصوات فوضى الانفجارات وظلمة تستوطنها أرواح شريرة صمتت فجأةً، والإصبع على الشفتين كي لا ينفضح أمرها.

أصبت بالخيبة.

أتذكر ليلة الجمعة ٢٨ مارس/ آذار ٢٠٠٣ التي شهدت طوفان نيران اجتاح بغداد. كنت مسمّراً على مقعدي في منزلي في باب العزيزية، أمام شاشة التلفزيون، مأخوذاً بالظلمات الصفيقة التي تغمر مدينة هارون الرشيد. الصواريخ المضيئة تنفجر وسط رقصة طائرات التوماهوك، ورشاشات الدفاع الجوي ترسم خيوطاً متقطعة مبهرة تضيء السماء، البنايات تتهاوى في ركامها من الإسمنت والفولاذ، ومخازن التموين تتشظى إلى عدد لا يحصى من المذنّبات المتداخلة. كان مشهداً سحرياً، ورؤية مرعبة. في مواجهة الترسانة الأسطورية لقوات التحالف كانت تقف شجاعة العراقيين. داوود وجالوت في صراع جبار بإخراج من توقيع مصمّم رقص عبقري. صفارات الإنذار كانت تنضم إلى صفارات الإسعاف في سمفونية شقاء لا يحتمل في حدته ولا في جماله. لكم وددت تلك الليلة لو أني أموت بين ذراعي بغداد المثخنتين بالجراح، وسط أمة أبية جديرة بالنضال. وددت لو أنصهر في نصب تذكاري يتشظى إلى آلاف القطع أو تمزقني قذيفة وأنا أصرخ: "الموت للغزاة!". ما من مكافأة لشهيد مثل تسليم الروح من دون تسليم السلاح، وهو يتماهى في كل كرة نار، في كل قرقعة عقب بندقية، في كل نثرة لحم تلتهمها دوامة الموت.

أيّ شقاء ألاّ أرى شيئاً من هذا عندي. سِرت ليست سوى حطام رهيب، بساط قديم رثّ يُضرب بالهراوة، ممسحة للأحذية الملطخة بالوحل. كما لو أن الآلهة اختارتها لتقيم فيها مأتم

الأولمب موطنها.

– لا تقف مكشوفاً أيها الأخ القائد.

يتوسّل إليّ أبو بكر كي أحتمي. يقف عند فسحة الدرج من دون أن يجرؤ على الانضمام إليّ على المصطبة. شحوبه يلمع في الظلمة الباهتة كشمعة في عمق غرفة موتى.

– أيها الأخ القائد، من فضلك تقدم من هذه الناحية.

وددت لو أبصق في وجهه.

منصور والمقدّم طريد وصلا مهرولين.

– من فضلك يا ريّس، لا تقف هناك.

– لماذا؟ قلت لهم. هذه مدينتي التي تدمّر، كيف يمكنني أن أصرف النظر عنها أو أستر وجهي؟

أبو بكر جازف بالتقدم خطوة في اتجاه المصطبة.

– عد إلى وكرك، أمرته. لستُ مثل بن علي مستعداً للفرار. على هذه الأرض ولدت وفيها سيكون ضريحي.

– قد تتعرض لإصابة.

– وماذا بعد؟

– نحن في حاجة إليك يا ريّس.

– انصرفوا. هذا أمر. لستُ خائفاً من الموت.

سقطت قذيفة على بعد عشرات الأمتار من المدرسة. وزير الدفاع تحصّن بسفرة الدرج وانحنى ويداه ملتصقتان بأذنيه. منصور انبطح أرضاً. وحده المقدّم تجرأ على الاقتراب مني، وهو لا يدري كيف يقنعني لأتبعه.

البناء المستهدف تحوّل إلى كتلة نار ضخمة، والأشجار المحيطة اشتعلت فيها النيران بدورها، ملقيةً ضوءاً رهيباً على الشارع المكسوّ بالحصى الملتهب.

منتشياً بأزيز الرصاص وجنون البشر، فوجئت بنفسي أصيح، والذراعان مبسوطتان متوسّلاً صاعقة من السماء:

– لن تنالوا مني حيّاً. لستُ شخصاً نكرةً وجد لينتهي على حبل مشنقة. سأقاتل حتى آخر قطرة من دمي... تعالوا خذوني يا عصابة الكلاب! أنا جندي الله، موتي يقدّسني، ومكاني في الجنة بين الأنبياء تحيط بي الملائكة والحوريات، وسيكون على قبري، هنا على الأرض، تيجان بقدر ما في الحقول من زهور... ماذا تظنون؟ أني سأختبئ كصدام في بئر إلى أن يأتوا فيخرجوني؟ لن تقحموا عود القطن في غشاء فمي، أو تعرضوني على شاشات التلفزة بلحية كلحية المشرّدين. وأنت يا ساركوزي، لن أمنحك شرف عرض فروة رأسي المسلوخ من فوق منبرك.

– أتوسل إليك يا ريّس، تعال معي، قال طريد.

لم أصغِ إليه.

لم أكن أسمع سوى صيحاتي الحادة التي كانت تطغى على دويّ الانفجارات. أنا أتون نارٍ هادر. قوة فائقة للطبيعة تتملّكني. أشعر بنفسي قادراً على مواجهة الأعاصير.

انفجرت قذيفة بالقرب من المدرسة. عصفها لفح وجهي، وأجّج غضبي.

وقفت على السور، وفتحت ذراعيّ على وسعهما، منفوخ الصدر ومرفوع الرأس.

أمسك المقدّم بي ليمنعني من التقدم على طرف الحائط. ظنّ أنني سأرمي بنفسي في الفراغ. دفعته بيدي، واستدرت نحو المجزرة هازئاً بالعالم كله.

– أنا هنا بلحمي وعظمي، واقف على منصتي. هل عليّ إحراق نفسي من أجل أن تروني؟ هيا، تحلّوا بالجرأة، يا عصابة الجبناء، تعاولوا واقبضوا عليّ إن كانت لديكم الشجاعة. أنا لست بن علي ولا صدام ولا بن لادن.

– ريّس، ربما كان هناك قناصة في الجهة المقابلة...

– ليكشفوا عن أنفسهم أذن. إنهم خائفون إلى درجة أنهم لو أطلقوا النار على تلّة لما أصابوها.

أحاط المقدّم جسدي بيديه من جديد. بدت ضمّته كما لو أنها تعتصر غضبي لتقذف به بعيداً حتى النجوم. استندت إليه وكوّرت يديّ حول فمي وأطلقت صيحةً أبعد من مدى قذيفة:

– اللعنة عليك يا صدام حسين! لماذا تركتهم يقبضون عليك حياً ويُنفّذون فيك حكم الإعدام يوم العيد؟ كان في إمكانك أن تطلق رصاصة على رأسك وتحرم الصليبيين فرحة الرقصة الجنائزية. بسببك أنت لم يعد في إمكان النبي محمد ولا أمته النظر في عيني الله مباشرةً... أما أنا فسأقف أمام الله مرفوع الرأس، أنظر في عينيه حتى يشيح هو بوجهه، فقد كان الأجدر به أن يطلق طيره الأبابيل على هؤلاء الكافرين الذين يعيثون فساداً في أرض الإسلام من دون أيّ رادع.

اجتاحت صيحاتي الفضاء في فورة عناصر غير مسبوقة. اختلطت السماء بالأرض، ومن بعدهما الهاوية...

أشعر بالبرد.

في المغارة التي أعبرها ظلمة كما لو أن الضوء لم يعرف سبيلاً إليها منذ بدء الأزمنة. أسير متلمّساً خطواتي، والخوف في قلبي. لا أعرف إلى أين أمضي، لكني أعرف أنني لست وحيداً. ثمة حضور يتعذّر تبيّنه يدور حولي. أسمع وقع خطوات، ما إن أتوقف حتى تتوقف.

– من هناك؟

– ...

– من هناك؟ لست أصمّ. لا يجديك الاختباء، إني أسمعك.

– أنت لا تسمع سوى صدى ذعرك يا معمّر.

استدرت ناحية الصوت، كان يتردّد في كل مكان. يرتدّ على الحجر، يروح ويجيء في نفسٍ أجشّ.

– لستُ خائفاً.

– بلى، أنت خائف.

– ممن تريدني أن أخاف؟ أنا القائد الجسور أسير ورأسي مرفوع إلى حدّ أنني أدفع النجوم إلى التراجع.

– لماذا إذن تتراجع في الظلام؟

– ربما أنا ميت.

– ومن دون أن تلقى عقابك؟ ألا تجد في ذلك استسهالاً؟

– من أنت؟ ملاك أم شيطان؟

– كلاهما معاً. حتى إني كنت الله في ما مضى.

– اكشف عن نفسك إذن، إن كانت لديك الجرأة.

شيءٌ ما تحرّك في قعر المغارة وأخذ يقترب. تبيّنت شكلاً بشرياً في ما رأيت. رجلٌ بائسٌ في الأسمال، بلحية مشعثّة، وحبلٌ طويل في عنقه يجرّه وسط سلاسله.

– من أنت؟

– ألم تعرفني؟ لقد كنت تلعنني منذ أقلّ من دقيقة.

– صدام حسين؟

– أو ما تبقّى منه، شيطانٌ حقيرٌ يهيم على وجهه في الظلمة.

– أنا ميت إذن.

– ليس بعد. راحة نفسك يجب أن تسبقها شهادة جسدك.

– ماذا تريد مني؟

– النظر مباشرةً إلى وجهك ومطالعة الرعب الذي استوطنه. لقد أهنتني ولعنتني وبصقت عليّ. دعني أذكّرك بأني شُنقت على يد أميركا وحلفائها، أما أنت فشعبك هو الذي سيشنقك.

– شعبك خانك أنت بدورك.

– ليس الأمر سيّان يا معمر. تحت حكمي كانت العراق أمّة كبيرة. هارون الرشيد في عظمة ملكه لم يبلغ ما بلغته. كانت جامعاتي تُخرّج العباقرة، وبغداد تحتفي كلّ مساء، وكل بذرة كنت ألقي بها كانت تبرعم قبل أن تلامس الأرض. لكن أنت يا معمر، ماذا فعلت بشعبك؟ جمهور متكالب جائعٌ سيلتهمك حيّاً.

– لن ألقى مصيرك نفسه يا حسين. مصيري بين يديّ. والله معي.

– الله ليس مع أحد. ألم يترك ابنه يموت على الصليب؟ لن يهبّ لنجدتك. سينظر إليك تنفق ككلبٍ تحت الأنقاض. وحين تُسلم الروح لن يكون هناك حتى لكي يستقبلك. ستهيم على وجهك في الظلام، مثلي، إلى أن تستحيل ظلمةً وسط الظلمات.

– ربما، لكني لم أمت بعد. لديّ القوة للقتال وقلب الوضع لمصلحتي. لن أنتهي كما انتهيت. عرشي يستدعيني، وفي أقلّ من أسبوع ستعمّ الاحتفالات بانتصاري، وبعدها لن يرفع أحد الصوت في وجهي.

– لا نحتفي بالريح. حيث تعلن عن نفسها تكتفي بالعبور. ما تحمله لا قيمة له وما تخلّفه وراءها سيمحوه الزمن.

– أنا لست الريح. أنا معمر القذافي!

صياحي أيقظني. السقف يميد ببطء. استجمعت أفكاري شيئاً فشيئاً. أنا ممدّد على الأريكة في غرفتي، منحرف المزاج، منهك القوى، وحلقي متيبّس. بسطوا لي طاولة صغيرة فوقها طبق عليه وجبة باردة: سندويش من البيض المسلوق، إصبع شوكولا، مربّى وقنينة ماء.

– يجب أن تستعيد قوتك يا ريّس، قال الفريق أبو بكر. الطبيب شخّص نقصاً طفيفاً في معدّل السكّر في دمك. لم تتناول شيئاً منذ وجبة غداء الأمس.

– ماذا حصل لي؟

– توعّك بسيط نتيجة الإرهاق، لكنه ليس بالأمر الخطير. كلْ لو سمحت، فهذا سيفيدك جداً.

من حولي، إضافةً إلى وزير الدفاع، يجلس منصور والمقدّم طريد يراقبونني بدقة.

– لست جائعاً.

– تعاني نقصاً في الماء، أيها الأخ القائد، وفي السعرات الحرارية. لن تصمد طويلاً هكذا.

– أنا بنفسي حضّرت السندويش، قال طريد ليؤكّد لي أن الطعام لم يكن مسمّماً. لقد حملت معي بعض المؤن.

دفعت الطبق.

– لست جائعاً.

– يا ريّس...

– تباً لك، لست جائعاً! لن تسدّ أنفي لتجبرني على ابتلاع حسائي.

– الطبيب...

– وما همّني من الطبيب، لن يعلّمني كيف أتصرّف بحياتي... كم الساعة؟

– الرابعة والنصف تقريباً يا سيدي.

– أليس من المفترض أن نكون قد انطلقنا؟

– العقيد معتصم لم يعد بعد يا سيدي.

– هذا ليس عائقاً. سيبزغ النهار بعد قليل. كيف سنخرج حينها من المدينة؟

– ليس في تصرفنا سوى ثلاثين مركبة يا سيدي، قال الفريق. هذا العدد لا يكفي لاختراق الحصار.

ضربت كفّاً بكفّ دلالةً على الغيظ.

– وماذا لم أسمع بعد؟ لا أجد من حولي سوى المحبطين. أنت رئيس الأركان أيها الفريق، يا وزير دفاعي. عليك أنت أن تجد الحل. هذه مهمتك. أتريدني أن أتولى الأمر عنك؟ ماذا كنت تصنع منذ ساعات؟ هل تنتظر أن يأتي الملاك جبريل ويصفق لك بجناحيه لينعشك؟

– جبريل مات في غار حرّاء، ولديّ قِربتي أروي بها عطشي.

إنها المرة الأولى التي يتفوّه فيها الفريق أبو بكر بتجديف على مسمعي، هو الذي تتجاوز تقواه الإدراك. والمرة الأولى أيضاً التي يسمح فيها لنفسه بأن يجيبني بلهجة شاجبة. احتجاجه بالكاد مسموع، لكنه كان كافياً لتهدئتي. أعرف أن رجالي مهيئين جداً لتحمّل تقلّبات مزاجي، وأنّ الموقف يتطلب مني حدّاً أدنى من الحكمة والتقدير للمقرّبين من مساعديّ.

أبقى الفريق نظره في الأرض، نادماً على كونه توجّه إليّ بالكلام بنبرة غير ملائمة. هو يعلم أنني مرهف الحساسية، وأنني إن تجاوزت الإساءة أحياناً فإني لا أنساها أبداً.

منصور حكّ رأسه منزعجاً. أما بالنسبة إلى المقدّم فاستمر يحدق فيّ، وعلى ثغره ابتسامة غامضة. حدقت فيهم ثلاثتهم، كلٌّ بدوره، وأطلقت تنهيدة وسألت إن كان ثمة أخبار عن ابني معتصم.

– لا يا سيدي، أجاب الفريق مواسياً. القصف كان عنيفاً، مما أرغم العقيد على التزام موقعه.

– كيف هي أحواله؟

– لا نعلم يا سيدي.

– وماذا تنتظر لتعلم؟ أرسل أحداً في إثره الآن.

– أنا مستعدّ، اقترح طريد.

– لا، ليس أنت. إني في حاجة إليك هنا. تدبّر أحداً سواك.

– أين نبحث عن العقيد يا ريّس؟ قال الفريق. لا نعلم أين يكون، فقد أخلى الموقع.

– لا نعلم. لا نعلم. أليس لديكم سوى هذه الكلمة على لسانكم؟ كلّف سائق دورية الاستطلاع.

– هو جريح يا سيدي.

– إنه يتظاهر بذلك. لم ألمح أيّ أثر للدم على ثيابه. إركله على مؤخرته، وإن لم يكن قادراً على القيادة أجلسه إلى جانب السائق، فما عليه سوى إرشاد الضابط المكلّف الاتصال بابني إلى الطريق.

وعد الفريق بمعالجة الموضوع مباشرةً وهبّ إلى تنفيذ أوامري، ولم يلبث أن عاد بعد دقائق.

– آسف يا سيدي. لقد مات السائق متأثراً بجروحه.

– تملّص جيد. على أيّ حال، هو كسول متهرّب لم يكن أهلاً للتفكير ثانيتين. ليس على الضابط سوى الانطلاق وحده. يستطيع أن يتدبّر أمره. أريد أن يعود ابني إلى مركز القيادة العامة قبل بزوغ النهار.

– لا أظنها فكرة جيدة، قال منصور.

– أفترض أن لديك فكرة أقلّ سوءاً.

– لقد توقف القصف، وسيعاود المتمردون انتشارهم على الخط الذي كانوا يحتلونه قبل الانسحاب، ومراقبوهم لا بدّ أنهم عادوا إلى مواقعهم المتقدمة. رسولنا قد يقع في كمين، وإن قبضوا عليه حيّاً فسيستمرون في تعذيبه حتى يكشف لهم عن موقعنا.

– سألتك إن كانت لديك فكرة أخرى.

أخرج الفريق هاتفه الجوال وتهيّأ لطلب رقم.

– ماذا تفعل؟

– أحاول الاتصال برجالي، فهم بصحبة العقيد.

– أطفئ هذا الجهاز أيها الغبي. هواتفنا موصولة بالأقمار الاصطناعية. أتريدهم أن يكتشفوا موقعنا؟ بهذه الطريقة توصلوا إلى اكتشاف موقعي في باب العزيزية.

اعتذر الفريق، وأعاد هاتفه إلى موضعه. أمرته بإرسال ضابط في إثر ابني وصرفته.

منصور منطوٍ على ذاته في الركن. لست أدري لماذا يبقى هناك يحرّك جمر الغضب المتأجج في داخلي بدلاً من أن يساعد الفريق.

– من الأفضل لو تعود فتتولّى زمام رجالك، قلت له. تركهم وشأنهم يقوّض معنوياتهم. تحرّك قليلاً، بئساً لك. إنك تثير الإحباط.

ألقى التحية ثم تحامل على نفسه ومضى يجرّ قدميه.

– مناصر بالجهد الأدنى، قلت للمقدّم، ما إن أصبحنا وحدنا. لا أحد يجاريه في العجرفة في المناسبات المفرحة، لكن ما إن تحلّ الأمور الجديّة حتى يصبح كالإطار المثقوب. الحرب تكشف عن نواحٍ عديدة سلبية لدى البشر. إنه لأمر محزن!

– إنك تقسو عليه يا سيدي. لقد تبلّغ منصور أن ابن شقيقه وقع في أيدي ثوار مصراتة.

– ابن شقيق منصور وقع في الأسر؟

– منذ يومين.

– هل تمّ التأكد من الأمر؟

– هذه هي الشائعة التي تسري، مما يزيد من يأس عمّه. إنه فتى شجاع، ابن الشقيق هذا. أنا أعرفه. منصور يحبه أكثر من أولاده. إنه يلوم نفسه لأنه هو الذي أرسله إلى يفرن للالتحاق بسيف الإسلام. وبحسب شهادة أحد الناجين، فإن ابن الشقيق وقع في كمين وقبض عليه حيّاً.

– لماذا لم يخبرني أحد بشيء؟

– الأخبار السيئة تزيد الأوضاع تعقيداً يا سيدي. الفريق أبو بكر قلق على أبنائه هو أيضاً. معتصم قال لي إنه لم يعد يعرف عنهم شيئاً منذ إخلاء الموقع.

– وهل الوزير على علم بالأمر؟

– لا.

وضعت القرآن على مسند المقعد، وأسندت ذقني بين الإبهام والسبابة واستغرقت في التفكير.

– هذه الحرب انتزعت منا كل شيء، قلت متنهداً. أولادنا، أحفادنا، لكن من بين كل العائلات المتسربلة بالحزن، عائلتي وحدها هي التي ستدفع الضريبة الأقسى... لم تعد لديّ رغبة في العيش وسط أشباحي. منذ لحظات، على المصطبة، تحدثت عن الجنّة، عن الحوريات، عن التيجان على قبري. لم أفقد رباطة جأشي. كنت صافي الذهن وأزن كلماتي. كنت راغباً حقاً في أن يوضع حدّ لحياتي، وتوسّلت إلى السماء لو أنّ قناصاً يرديني.

– كنت في حالة غضب، هذا كل شيء.

حدّقت في المقدّم، لم يشح بنظره، بدون وقاحة، مع هذا الارتباك المتسائل الذي يرتسم على وجوه التلاميذ أمام معلميهم حين لا يكونون على ثقة من الإجابة.

– هل أنت خائف من الموت أيّها المقدّم؟

– ثمة مبدأ سرت عليه مذ اخترت الانخراط في الجيش: علينا ألا نخاف من الموت وإلا متنا من الخوف. ثم أليس الموت هو مصير كل حيّ؟ سواء ملكنا العالم أو عشنا في العوز، فإننا ذات يوم سنترك كلّ شيءٍ في مكانه، كنوزنا كما شقاءنا، ونرحل.

الموجات التي يبثّها هذا الفتى سليمة، وهي تريحني.

– هل أنت مؤمن؟

حوّل بصره ناحية القرآن في نظرة ذات دلالة.

– ليس عليك أن تخشى شيئاً، طمأنته. لديّ ذهن منفتح.

قال:

– حسناً. مع كل تقديري لتقواك، لا أحتمل فكرة أن يكون ثمة دينونة أخيرة بعد كلّ ما عانيناه في هذه الحياة. لن يكون للموت فضلٌ إلا إذا وضع حدّاً نهائياً لكلّ ما زال عن صفحة الوجود.

– ألا تبغي دخول الجنة؟

– ولأيّ غاية؟ يخيّل لي أنّ عدم استمتاعك بالحياة وأن تحظى بالأبدية كاملةً سيّان. ما ليس له نهاية يضني ويثير الملل.

– ما لم يكن لديك الإيمان فلن يكون لديك المثال أيها العقيد.

– كان لديّ الإيمان من دون أن يكون لديّ المثال، يا سيدي. تخليت عن الأول كي لا أتقاسمه مع المرائين، وعن الثاني لأني لم أجد أحداً أقاسمه إيّاه.

تجاسر فجأةً وأضاف:

– أتعلم لماذا انخرطت في الجيش أيها الأخ القائد؟ بسبب خطاب، أو بالأحرى نقد لاذع. هو خطابك يا سيدي. لم أعد أذكر المناسبة ولا المكان، لكني لا أزال أتذكر جملةً تركت أثرها في مدى الحياة. كنتَ خارجاً عن طورك، ذلك اليوم، ضد أخوتنا في المشرق والمغرب والبلدان الإسلامية، وألقيت بهذه الجملة التي كان من شأنها إيقاظ الموتى لكنها لم تحرّك ساكناً في من كانت تستهدفهم: "هناك ثلاثمئة وخمسون مليون رأس غنم!".

هذا الفتى يسحرني. لقد استبطن غضبي عن ظهر قلب وجعله غضبه.

– حتى إننا لا نصنع الملاعق التي نحرّك بها سكّرنا في أكواب الشاي. كتلة من المقامرين لا تفكّر إلا بإهدار المال أو اختلاسه، هذا ما نحن عليه. إعاقتنا يا سيدي هي غياب الفكر. الفكر أداة غريبة عنا، ومن دونها كيف يمكننا التفكير بالغد، وكيف يمكننا الانطلاق إلى المستقبل؟ إننا نعيش كلّ يوم بيومه، من دون أيّ قلق حيال الأجيال المقبلة، وذات صباح سنصحو، يد أمامنا وأخرى وراءنا، ونحن نتساءل: "ولكن ماذا فعلنا بلياليا؟".

وتابع، ووجهه قد اشتدّ احمراره، مصمّماً على فقء الدمّل، الذي، ولا شكّ، ينخر أحشاءه منذ سنوات:

– ما أنجزته في مسيرتي العسكرية أنجزته من أجلك يا ريّس، من أجلك فقط. لم يراودني لحظة شعور العمل من أجل مثال وطني، يتعلق بالهوية أو بالإيديولوجيا، لأني لم أولِ، في أيّ لحظة، أيّ ثقة للحكام العرب الذين يتوهمون أنهم يتقدّمون في اتجاه معاكس للتيار فيما هم يتقهقرون.

– أنا أيضاً حاكم عربي.

– لا علاقة لك بالآخرين. أنت قائد، قائد حقيقي، فريد، ولا تُستبدل. لذا أنت اليوم وحيد.

– لا أعتقد أن جهودي تذهب سدى أيها العقيد.

– يمكننا دوماً أن نبشّر في الصحراء يا سيدي، لكننا لا نبذر فيها زرعنا.

رشقا رصاص سُمعا في محيط المدرسة. توسّل إليّ المقدّم ألاّ أغادر الغرفة، وتوجّه نحو الممرّ. طلقة رصاص وحيدة، ومن بعدها الصمت...

اقتربت من النافذة وأزحت الستارة قليلاً: المنظر لا يشرف على الباحة. تحوّلت إلى الممر وأصخت السمع. تناهت إليّ صيحات تلطّف الجدران حدّتها. في الطبقة السفلية، ما من حركة، ما من ضجة. سمعت أصوات أقدام على حصى باحة المدرسة، فتساءلت إن كنّا نتعرض لهجوم كوماندوس، أو هي حركة عصيان.

– ماذا يجري؟ صحتُ بلا تبصر على أمل أن يظهر أحدٌ ما في الطبقة السفلية.

لم يجبني أحد.

استندت إلى الدرابزين، ونزلت الدرجات واحدة واحدة، مترقّباً.

في الخارج توقفت الصيحات.

لم أعد أجرؤ على التقدّم أكثر، فوقفت عند منتصف السلم، مستعداً للصعود إلى غرفتي والتزوّد بسلاحي إن دعت الحاجة.

– من أطلق النار، من أطلق النار؟

عرفت فيه صوت الفريق.

دخل جنود إلى الصالة السفلية حاملين جريحين، فأشار عليهم المقدّم أين يضعونهما.

– ضعوهما أرضاً، هناك.

منصور والفريق أسرعا، تائهين. توقفا أمام الجسدين المضرجين بالدماء. انضممت إليهما. الجريحان في حال حرجة، أحدهما مصاب في عنقه، والآخر في صدره وقد جمدت نظراته المصدومة على السقف وفمه مفتوح يغرغر.

– أحد المساعدين فقد السيطرة على نفسه، شرح لي المقدّم، فأطلق النار على رفاقه قبل أن يحوّلها إلى صدره. إنه يرقد خارجاً، في الباحة.

– كيف فقد السيطرة على نفسه؟ ربما كان يريد قتلي.

– كان يريد الانطلاق للقتال، قال أحد الضباط، أعتقد أن ذلك بسبب القصف. لم يكن في حال سويّة منذ بضع ساعات، حتى إنه رفض الاحتماء. ثم انهار. تناول سلاحه وقال إنه لم يعد في استطاعته الانتظار وإنه يريد أن يقاتل. حاول الجنديان انتزاع السلاح من يده، فأطلق عليهما النار ثم انتحر.

قادني في الباحة والمصباح في يده.

على بعد خطوتين من بوابة المدرسة جثّة رجل مخلّع على الأرض، ساقاه كما ذراعاه متباعدتان، وقد أتلف نصف جمجمته. تعرفت إليه من السّوار الذي يلفّ معصمه: إنه مصطفى، الخادم الذي حمل إليّ عشائي.

أمرت الفريق وقائد الحرس بتحضير المجموعة استعداداً لإخلاء القطاع في أقرب فرصة، ودعوت المقدّم إلى مرافقتي إلى غرفتي.

لا أحتمل البقاء وحيداً، قابعاً بين أربعة جدران عارية تفوح منها رائحة النحس، وتقليب حبات مسبحتي كمعذّب يحصي لحظات عذابه الأخيرة.

حملت القرآن مجدداً وحاولت القراءة. لم أتمكن من التركيز. الانقطاع عن الطعام بدأ يشوّش نظري ويجفّف أنسجتي. أجد صعوبة في الاحتفاظ بالكتاب الكريم بين يديّ ما دامت أصابعي مخدّرة. وبين الحين والحين يتملكني دوار لا أقوى معه على الوقوف، فأتمنى لو أغمض عينيّ ولا أفتحهما أبداً.

جلس المقدّم على كرسيّ قبالتي. التعب جعّد قسمات وجهه، ومع ذلك ظلّ محتفظاً بيقظته.

أفكر بالخادم مصطفى. ترى، ما الذي أراد أن يثبته حين فجّر جمجمته؟ أن يستحق تقديري؟ أتراه قدّر نفسه يوماً؟ غريب كيف أن الرجال يحلمون أن يبلغوا بموتهم ما لم يستطيعوا بلوغه في حياتهم. أحاول أن أتلمّس تعقيداتهم فترتدّ إصبعي عن القشرة الهلامية التي تغلّف ذهنياتهم. توهّمتُ طويلاً أنني أدركت حقيقتهم إلى أن اكتشفت أني مضلّل تماماً، وأن الألغاز التي اعتقدت أنني اخترقتها ابتلعتني بالكامل.

على المصطبة، منذ لحظات، طلبت من الموت أن يمنحني ما تهدّدني الحياة بسلبه: شرفي وشرعيتي كحاكم، وشجاعتي كرجل حرّ. كنت على استعداد أن أموت كبطلٍ إنقاذاً لأسطورتي. لم يكن ذلك مشهداً تمثيلياً. حين عرّضت نفسي عند السّور كنت أريد أن أكون مكافأة نفسي، وأن أستردّ الجانب الأكبر من هيبتي. أن تُهزم، ليس في ذلك عار. الهزيمة لها استحقاقها. إنها الدليل على أننا قاتلنا... وأتباعي، ما عساهم قالوا عني وهم يرونني عرضةً للأنظار؟ أني أصبحت مجنوناً؟ لقد كنتُ حقّاً مثيراً للسخرية. لم أتأكد من تقلّبات غضبي إلا الآن حين اختار رجل، خشية فقد ثقتي به، أن يفقد كلّ شيء آخر معه، لكني لست نادماً على أني صرخت قراري عالياً وبقوة.

الحياة بالغة التعقيد، وبالغة الفظاظة. منذ أشهر معدودة كان الغرب، ومن دون أيّ شعور بالعار، يفرش دربي بالمخمل، ويستقبلني بكل مظاهر الشرف، ويطرّز كتفيّ كعقيد بأكاليل الغار. سمحوا لي بنصب خيمتي على مروج باريس الخضراء وهم يضربون صفحاً عن فظاظتي ويغضّون الطرف عن فظاعاتي. واليوم يحاصرونني على أرضي كفارٌ من إصلاحية. غريبٌ هذا التبدّل المفاجئ في الزمن. في يوم تكون معبوداً، وفي يوم آخر منبوذاً. في يوم تكون أنت الصياد، وفي يوم آخر الطريدة. تسلّم أمرك "للصوت" الذي يؤلّهك في عمق أعماقك، ومن ثم، ومن دون أيّ إنذار، يأتي الغد ليجدك مختبئاً في زاوية، عارياً، أعزل، ومن دون أيّ أثر لصديق. في خضمّ العزلة الهائلة لفترة حكمي، حين لم يكن أحد سواي ليجرؤ على المغامرة، لم أكن أستبعد احتمال تعرّضي لاغتيال أو انقلاب. هذه ضريبة السلطة المطلقة، وخصوصاً

حين نغتصبها بالدم. بين هاجس الخطيئة وهول الخيانة خيطٌ رفيع. نعيش مع ناقوس خطر مزروعٍ في دماغنا. نبقى على حذرنا في النوم كما في اليقظة، سواء كنا منعزلين في خلوة مع أنفسنا أو منخرطين في قتال. كلّ ما كان موجوداً يضمحلّ في غفلة عين. ما من توتر أعنف من توتر حاكم. توتر حادّ، هوسيّ، متواصل، شبيه بتوتر تلك الحيوانات التي أضناها العطش فنراها عند بركة ماء غير قادرة على إرواء عطشها إلا وهي تتلفت حولها عشرات المرات، وآذانها مستنفرة، وحاسة شمّها تصفّي الهواء كمن يخشى وجود غاز مميت. لكني ما توقعت لحظةً مصيبةً على مثل هذا القدر من الفظاعة؛ أن أنتهي في مدرسة تحولت عن اختصاصها، تحاصرني عصابات من الخونة، في مدينة لا تشبه شيئاً! كيف أرتضي الانحدار إلى هذا الدَرَك، أنا الذي كان بدري يضيق به المدى الرحب؟ قتل آلاف الخونة بيديّ لن يخفّف عني تلك اللوعة التي تنخر قلبي كسرطان. أشعر بأني تعرضت لقدرٍ من الغش والخيانة بحيث أن "الصوت" الذي كان يرنّم فيّ صمتَ فجأةً، وبات الصمت الذي يهيم في داخلي يرعبني كشبحِ ميتٍ في الليل.

الساعة في يدي تشير إلى الخامسة.

محركاتٌ تزأر في حرم المبنى. أزحت بطرف إصبعي الستار الذي يغطي النافذة لألقي نظرة على الخارج.

– يمكنك انتزاعه يا سيدي، قال المقدّم، لم يعد لدينا ما نخفيه.

– أوَتظن؟

– دع عنك. قد توسّخ نفسك.

سألني أن أتراجع قبل أن يطلق النار على الستار الذي تهاوى وسط سحابة من غبار.

في الخارج، لم يكن النهار في حاجة إلى البزوغ، فقد استبقه القطاع رقم ٢ بحطامه المدخن وأبنيته المشتعلة.

في إمكان سِرت أن تجعل كتل الخشب المشتعل قطعاً من الشمس، لكنها لن تمنع الليل من معاودة الهبوط.

طلقات أسلحة رشاشة عادت تتردّد هنا وهناك. الرجال استيقظوا على أزمتهم. لم يحمل الليل لهم بارقة أمل.

في السماء، التي لا تزال حبلى بأعاصير قاتلة، نلمح بضع طائرات من دون طيّار تحوّم بشكل دائري. طيور كواسر تبحث عن محتضرين.

كل شيء يوحي بأن المدينة لن تنهض من ركامها إلا لتسقط فيه مباشرةً. الفجر في هذا الصباح الأبيض الدامي يشبه جرحاً خبيثاً متقيّحاً.

– هذه المرة لن نخرج سالمين أيها العقيد.

– لماذا تقول هذا يا سيدي؟

– حدسي معطّل. في داخلي صمتٌ غريب، وهذه علامة سيئة. لن أستسلم، لكني لن أشهد بزوغ نهارٍ آخر.

– مرات كثيرة وقعتُ في كمائن يا سيدي، وكنت أفكر أن نهايتي حلّت. في مالي مثلا، قرب أغلهوك، طوّقنا الجيش. كنت مع قائد الثوار الأزواديين وثلاثة من ضباطه في كوخ،

ينهكنا العطش والجوع، وليس في حوزتنا سوى صلواتنا وبضع رصاصات، موقنين أننا نعيش ساعاتنا الأخيرة. وفجأةً هبّت عاصفة رملية، فخرجنا من الكوخ وتجاوزنا الحصار من دون عائق.

– لن تكون هناك عاصفة هذا اليوم.

عدت أتهالك على المقعد.

– سنخسر الحرب أيها العقيد.

– ليبيا هي التي ستخسرك أيها الأخ القائد.

– الأمر سيّان.

– بمعنى ما.

– وبمعنى آخر؟

لم يجب.

– لن يكون هناك سوى معنى واحد، أيها العقيد، ذاك الذي يخطّه القدر. نحن لسنا سوى لاعبين، نؤدي أدواراً لم نخترها بالضرورة وليس من حقنا إلقاء نظرة على السيناريو.

– أنت كتبت التاريخ يا ريّس.

– خطأ. التاريخ هو الذي كتبني. حين ألقي نظرة إلى الوراء لأجري حساب مسيرتي، ألاحظ أن لا شيء تمّ بإرادتي، لا إنجازاتي العسكرية ولا معجزاتي التي أنقذتني من قضايا عدة. أخيراً قلت لنفسي، لماذا أعقّد حياتي ما دام كل شيء قد كُتب سلفاً. ثمة أحدٌ ما فوق يعلم ماذا يفعل... لكني في الفترة الأخيرة بتّ أسأل نفسي إن كان قد قلب الصفحة. لعله اختار بيدقاً آخر وهو الآن يلهو به.

تناولت القرآن لكني لم ألبث أن وضعته من يدي.

– ألا ترى أيها العقيد، أن أجمل حكايات الساحرات، حين يعاد عرضها في مسلسلات طويلة، ينتهي بها الأمر إلى إثارة الملل؟ هذا ولا شك ما حصل للأوحد الذي فوق. ما من تتابع في أفكاره في ما يعنيني، وليست لديه، حتى، رغبة لمعرفة نهاية الحكاية.

قدم إليّ المقدّم إصبع الشوكولا.

– يحتوي على المغنيزيوم يا سيدي. عليك أن تستعيد قواك.

– لست جائعاً.

– لو سمحت...

– أنا متقشّف والصوم يناسبني تماماً، يساعدني على الاحتفاظ بأفكاري واضحة عند استعصاء الأمور.

لم يلحّ، وعاد للجلوس في كرسيه. هذا الفتى رائع. لديه سموّ ووضوح وهدوء جليل يرفعه باستمرار في عينيّ، وهو – كفضيلة نادرة – طبيعي. إنه يدرك مدى تقديري له، لكن هذه الحظوة لم تفسده. سواه كان استغلّها حتى الامتلاء، أما هو فيحتفظ بها بعناية في قلبه كهبة مقدّسة لا يستطيع أن يظهرها وإلا عرّضها للخطر.

– ما هو الإنجاز الذي كنت تتمناه ولم تتسنّ لك فرصة تحقيقه أيها العقيد؟

فكّر لحظة، ثم أجاب بصوتٍ يكاد لا يسمع:

– أن أحبّ حتى الجنون.

– ألا تُحبّ بما يكفي؟

– زوجتي تشكو أنها تزوجت شبحاً بسبب غيابي الدائم، ورفاقي يحسدونني حتى الموت. كل مرة أذهب في مهمة يصلّون كي لا أعود منها.

– بالنسبة إلى رفاقك، الأمر طبيعي. هم يحسدونك لأنك تجاوزتهم، ويكرهونك لأنهم يعرفون أنهم لن يبلغوا يوماً أدنى أخمصيك. لكن الأمر بالنسبة إلى زوجتك مختلف. فهي وإن كانت تشعر بالغيرة، فبخلاف رفاقك، تدعو الله ليلاً ونهاراً كي يعيدك إليها.

– هي تعلم أنني وفيّ لها.

– هذه أمور لا يمكن معرفتها. مهما تكن ثقتنا قوية بمن نحب، فلمجرد أن يغيب عن ناظرينا حتى يصبح الشك رفيقنا الدائم.

– لم أخنها مرة واحدة في سنوات زواجنا الثماني.

– ستخونها. أنت فتى جذاب، لامع، وتتقدم على سائر رفاق دفعتك. أيّ امرأة سترتمي بين ذراعيك. النساء تستهويهن الرّتب أكثر مما تستهويهن العضلات.

– ليس جميعهن أيها الأخ القائد.

– وما أدراك؟ ثمة أسرار في المخادع الزوجية لا يرتاب فيها الأزواج المخلصون أبداً.

رفع يديه علامة استسلام.

– أتمنى ألاّ يكون هناك ما يدعو الى الريبة.

– الأمر لا يتعلق بك.

ضحك إذ أعوزته الحجج.

مزاجه الجيد أراحني قليلاً.

– في ما عدا أن تُحَب، ما الإنجاز الآخر الأحب إلى قلبك؟

جمع كفيه حول أنفه، وفكّر. شعت عيناه حين أعلن:

– جدي كان راعياً. لم يكن متعلماً، ولكن كانت له فلسفة في الحياة. لم أصادف أحداً مثله يرتاح إلى الفقر. النزر الضئيل كان كافياً لجعله سعيداً. لو كانت الصدفة تتقن أعمالها، لكانت كل الأشياء، بالنسبة إلى جدي، على أفضل ما يرام. المهم أن تراها كما كانت عليه لا كما تتمنّى أن تكون. فرصة رائعة، في نظره، أن تكون على قيد الحياة، وأي مشقة يجب ألاّ تلغي هذه الفرصة. لا أزال أذكر أنه كان يأكل ما تيسّر له ويرتدي الأسمال نفسها في الشتاء كما في الصيف. حين ذهبت لأعرض عليه الانتقال للعيش معنا في أجدابيا، في فيلا جميلة تشرف على البحر، أومأ برأسه رافضاً. لم يكن يريد الابتعاد عن خيمته المنصوبة في أيّ مكان منعزل مقابل أيّ شيء في العالم.

– كان على خطأ.

– ربما، لكنه كان هكذا. جدي اختار أن يكون على سجيته، وألا يشغل باله شاغل. كان سعيداً وغنياً بالأفراح التي يتقاسمها مع من يحبهم. كان يستيقظ، كل صباح، مع الفجر لكي يشاهد اضطرام السماء. كان يقول إنه ليس في حاجة إلى شيء آخر... هذا هو الإنجاز الذي

كنت أرغب في تحقيقه يا سيدي، أن أكون، كجدي، رجلاً من دون تعقيدات، مع وصفة السعادة التي تؤمّنها رفاهية العيش في الزهد.

– لن أفهم أبداً كيف أنّ بعض الناس يعتبرون التسليم بالأمر الواقع تذللاً.

وجدت المقدّم مفعماً بالسذاجة، وتساءلت ماذا سيحلّ به. لكم أتمنى أن يخرج سالماً. هو شاب، وسيم وصدوق. هو صورة عن الجيش الليبي كما أحلم به، الضابط الذي سيعيش بعدي لكي يردّد تعاليمي ويقيم أنصاباً تمجّدني في كل ذكرى.

– هل تعرف فان غوغ أيها المقدّم؟

– بالتأكيد. قطع أذنه من أجل أن يأتي احمرار لوحته بمثل حدة آلامه.

– أحدهم روى لي أنه قطعها من أجل معبودة تعيسة.

باعد ما بين ذراعيه:

– لكل عبقري اختلاقاته يا سيدي. أنت نفسك ذكرت أن الموت وحده الحقيقة وأن الكذب هو الذي يتولّى تشكيل الحياة.

– لا أذكر أني قلت شيئاً من هذا القبيل.

– سينسبون إليك الكثير من الأقوال لاحقاً، أيها الأخ القائد، كما تُنسب أشعار لا يُعرف قائلها إلى المتنبي. هذا جزء من الميثولوجيا.

– هل تظن أنهم سيتذكرونني؟

– ما دامت هذه البلاد تحمل اسم ليبيا.

– وماذا سيحتفظون مني؟

– سيكون لك مريدون ومجموعة من المشنّعين. المريدون يبجّلونك، أما الآخرون فيأخذون عليك ما أنجزته ما داموا لم يخلفوا شيئاً يذكر في حياتهم. الأكيد أن القسم الأكبر من الشعب سيتأسّف عليك.

– لا أظن، أيها المقدّم. هذا الشعب لا ذاكرة لديه بقدر ما يعاني من تشوّه في الدماغ، وإلا كيف نفسّر مطالبته بهزيمتي بعد كلّ ما حققته من أجله؟

مرّر المقدّم أصابعه في شعره. انسدلت خصلة على جبينه، مضيفةً شيئاً إلى فتنته كقائد. تأمّل يديه البيضاوين قبل أن يضيف:

– حين كنت أتابع دورة تدريب في أكاديمية فيستريل قرب موسكو، نسجتُ صداقات مع الروس. كانوا ضباطاً وضباط صف شباناً متخرجين حديثاً في الجامعات. كانوا يتنقلون مع هواتفهم الذكية، ويقودون سيارات الدفع الرباعي الجديدة، ويتعطّرون بعطور ديور، ويرتدون ملابس من ماركات مشهورة، ويحجزون طاولات في مطاعم راقية، ويضربون على لوحات مفاتيح الحواسيب المتطورة. كانوا أبناء الحاضر، أثرياء وعلى عجلة من أمرهم. لم يعرفوا مرحلة الفاقة، الـ chorni khleb[7]، والصفوف الطويلة أمام المخازن ذات الرفوف شبه الفارغة، ولا وسواس جاسوسية مكاتب البريد ولا السجن القاسي عقاباً لشراء الجينزات الزرقاء التافهة من السوق السوداء. مع ذلك، حين كانت تدور الخمرة في الرؤوس، كانوا يتذمّرون من كل شيء، ويجدون أن البلاد تسير مباشرةً نحو الهاوية، وأن الرداءة متفشّية في المؤسسات، والفساد منتشر بين الحكام، ويتأسفون على قبضة ستالين الحديدية... الأمور

كانت دوماً هكذا، أيها الأخ القائد. في تشيلي يتأسفون على بينوشيه، في إسبانيا على فرنكو، في العراق على صدام، في الصين على ماو، كما يتأسفون على مبارك في مصر وعلى جنكيزخان في منغوليا.

مكتبة الرمحي أحمد

7 الخبز الأسود بالروسية.

– أي صورة سيحفظونها عني، صورة القائد أم صورة المستبد؟

– لست مستبداً. لقد قمتَ بالضبط بما عليك القيام به. ثمة نوعان من الشعوب، الشعب الذي يتصرف بروية والشعب الذي يُسيَر بالهراوة. شعبنا كان في حاجة إلى السَوط.

لست موافقاً.

أعترف أني كنت بلا رحمة مع من يخالفونني الرأي. وهل من طريقة أخرى للتصرف؟ الحكم ثقافة تتماشى مع مكوّن وحيد: الدم. من دونه يصبح العرش مشنقة محتملة. من أجل المحافظة على عرشي، استعرت من الحرباء فضائلها: كنت أمشي عين إلى الأمام وأخرى إلى الخلف، الخطوة محسوبة بمنتهى الدقة، واللسان يصدر أحكامه أسرع من البارود. ومن اللحظة التي دخلت فيها المشهد، صرت أنا المشهد...

– لم أقسُ إلا على الخونة أيها المقدَم. الشعب أحببته وحميته.

– ما كان عليك ذلك يا ريس. لقد بالغت في احتضانه حتى تحوّل كسولاً وخبيثاً. لقد رضي بوضعه كمتلقٍّ للمساعدة حتى إنه لم يعد يبالي بطرد ذبابة عن قالب حلوى. العمل، المعرفة، الطموح، ليست سوى مضيعة وقت بالنسبة إليه. ومن ثم، لماذا التعب ما دام الأخ القائد يفكّر عن الجميع. الليبي لم يفهم حقيقة سخائك، فكان كل همّه أن يستغلّ هذا الكرم. أخذ يتصرف كالسيد الصغير وتوهّم أن هذه الحالة ستدوم، من لحظة ما أصبح هناك رجال ينشطون بدلاً عنه، ويديرون آلاته وصولاً إلى تنظيف برازه، فلماذا يعقّد الأمور؟ هو تعب فقط من مراقبة عبيده يبذلون قصارى جهدهم من أجله. اليوم هو يسعى إلى أن يثبت أنه يساوي أغلى من سعره الحقيقي، فيعضّ اليد التي كانت تطعمه. أظن يا سيدي، لو كان لي أن أسمح لنفسي، أنه كان عليك أن تعامل الشعب بالطريقة التي عاملت بها معارضيك. هذا الشعب لا يستحقّ أن نهتمّ لأمره. إنه مجتمع من الحانوتيين والمهربين لا يعرف سوى الكسل والتجارة غير المشروعة. أجيال الغد ستتأسف عليك كما يتأسفون على ستالين في روسيا، فمع قطيعنا هذا الذي يجتاح أملاكه ويقتل أبطاله من دون محاكمة في الساحات العامة، لن يكون لصغارنا سوى بلاد متروكة للمستهترين بواجباتهم ولمن لا شخصية لهم ولا رأي.

كنت مهموماً ومرتاحاً في الوقت نفسه لكلام المقدَم.

– ما أحبه فيك أيها الفتى، عدا شجاعتك، هو صراحتك. ما من واحد من وزرائي وأبناء بلاطي لفت نظري إلى هذه الحقيقة. الكل كانوا يتزلّفون إليّ ويمتدحونني بأني جعلت من مجموعات بدو لا قيمة لها ولا اعتبار الشعبَ الأكثر اعتزازاً بنفسه بين شعوب الأرض.

– لم يكذبوا عليك، فأنت بالفعل جعلت من مجموعة قبائل يعادي بعضها بعضاً جسداً واحداً وروحاً واحدة. لكن الحقيقة الحقة كانت في موضع آخر.

– ولماذا أخفوها عني؟

– لأنه لم يكن من الجيد البوح بها يا سيدي.

في هذه اللحظة انفتح باب الغرفة بقوة. كان هذا منصور الذي جاء لتقديم تقريره، متقطع الأنفاس، عصبيّاً ووجهه محتقن.

أعلن لي أن الضابط المكلّف الاتصال بمعتصم في طريق العودة وأن وقت الانطلاق قد حان.

استدرت نحو المقدم وقلت له:

– حانت لحظة الحقيقة.

في الطبقة السفلية تسود البلبلة.

الجنود يتراكضون في كل اتجاه. الضباط يتصايحون ليستمدّوا جرأة، ويصطدمون بالمتباطئين الذين فاجأهم تحوّل مجرى الأحداث.

أرتعب من الفوضى. إنها معدية وتثير توتري.

شككت في أن يكون الفريق قد شرح حقيقة الوضع لضباطه. بحثت عنه وسط المعترك لكني لم أره في أي مكان.

جاءني منصور بالضابط الذي تسبّب بكل هذه الفوضى. كان شاباً، وعلى الأرجح متخرج حديثاً من الأكاديمية. حيّاني، وكاد يقع، فقد أربكته السحنة التي ظهرت فيها.

– أين ابني؟

– يكاد يصل يا سيدي.

– هل رأيته؟

– نعم يا سيدي.

– بعينيك الاثنتين؟

– بالتأكيد يا سيدي. أوكل إليّ المركبات العشرين التي قدتها إلى هنا، وكلّفني أن أبلغك أنّ علينا الانطلاق مباشرةً.

– ولماذا لم يعد معك؟

– إنه يقود القسم الثالث والأخير من الموكب. ثلاثين مركبة على الأقل. وقد أعاق تقدمه مدفعا شيلكا ينقلهما معه.

– هل هو معافى؟

– نعم يا سيدي. قال إنه سيلتحق بنا على الطريق ما أن نغادر القطاع رقم ٢.

سيارتي ذات الدفع الرباعي مركونة في باحة المبنى. المقدّم طريد شكّل رتلاً، استدعى السائقين وزوّدهم بتعليماته عن الطريق التي عليهم سلوكها:

– ستتقدّم الموكب أربع سيارات استطلاع. سأكون في المركبة الخامسة التي تتبعها على بعد مئتي متر. الرئيس سيكون في السادسة. ممنوع منعاً باتاً التوقّف في حال وقوع اعتداء علينا. إن تركتُ الموكب اتبعوني. لا تغيبوا عن نظري ولو لحظة واحدة. ستؤمّنون الحماية للرئيس.

ألقى السائقون التحية العسكرية والتحقوا بسياراتهم.

منصور وأنا استقللنا السيارة المصفحة.

– أين الفريق؟

– راح يتفقد إن كان ابناه قد وصلا، أجابني قائد الحرس.

– أعيدوه. أريده معي في السيارة.

أسرعوا في استدعاء الفريق.

للدقائق ثقل الأطنان.

استشطت غيظاً وضربت بقبضتي مقعد السائق.

أخيراً وصل أبو بكر، لاهثاً وعرقه يسيل.

– تباً لك، أين كنت؟

– أفتش عن وليّ.

– ليس هذا وقته، إصعد في المقدمة، لم نكن ننتظر سواك.

ما إن استقر الفريق في مقعده في السيارة الرباعية حتى تحرك الموكب.

غادرنا المدرسة في صخب مجنون.

في غمرة الاستعجال تصادمت سيارات وأخرى قفزت فوق الرصيف استعجالاً لاحتلال مواقعها في التشكيل.

أخيراً انتظم الموكب سالكاً الجادة الكبرى التي تؤدي إلى الساحل.

حين وصلنا إلى التقاطع الأول تذكّرتُ أني نسيت مصحفي ومسبحتي في الغرفة.

نسير مكشوفين على الطريق الساحلية تحت رحمة الكمائن والغارات الجوية.

نادراً ما يكون النهار مشعاً كمثل ما هو عليه هذا النهار. رغم دخان الحرائق، كان ضوءُه يبهر العيون، حتى لكأنّ الشمس أخذت جانب الخونة، فهي تسلّط عليّ ضوءها كما لو كنتُ هدفاً.

لست مطمئناً، لكني لست مفرطاً في القلق. لا أعرف إلى أين يمضون بي، ولا ما ينتظرني عند المنعطف، ومع ذلك لا يعتريني شعور بأن من المهم معرفة ذلك. فما الذي سيتغيّر؟

منصور منطوٍ عن يميني، يحتضن بندقيته كما لو أنها الحبل الذي سينتشله من هوّة صمته.

أصابعه بيضاء عند مفاصلها، وجيوب ضخمة زيتية اللون كالكدمات أسفل جفونه.

أظن أنه يصلي بصمت.

في قمرة المركبة، يتردّد صوت المحرك كنذير شؤم.

الفريق ينظر في المرآة الارتدادية علّه يلمح الوحدة الثالثة من الموكب الذي يقوده ابني والذي يتمنّى أن يجد فيه ولديه.

– هل ترى شيئاً؟

– ليس بعد يا ريّس.

– لماذا تكبّد معتصم عناء نقل مدفعي شيلكا معه؟ غمغم منصور. هذا سلاح مجنزر ثقيل، سيبطئ تقدمنا. ثم ماذا عسى مدفع ٣٧ ملم أن يفعل حيال طيران قوات التحالف. مجاله محدود، وبالكاد ينفع في تصيّد طائر الحبارى.

– يبقى أفضل من لا شيء، أجاب الفريق.

– هو ليس نافعاً حتى للزينة، قال منصور بإصرار. الكواسر التي تقصفنا تطلق علينا نيرانها من البحر، وهي ليست في حاجة إلى الاقتراب من الساحل.

فضّلت عدم الاستماع إلى هذا الحديث.

أحاول ألا أفكّر في شيء، مستغرقاً في ذاتي بحثاً عن هذا "الصوت" الذي كان يغزل لي الآمال السخية من الزمن الذي كنت فيه أستظلّ مرارتي كضابط متحرّر من أوهامه، ويزيّن عزلتي بالوعود والتحديات.

أين تراه مضى هذا "الصوت"؟ لماذا يصمت؟ أتخيله منكمشاً على نفسه في مكانٍ ما من الحلكة التي تلفّني، لا يصادف سوى صدى صلواتي. "الصوت" غادر "المركب"، وما من أحد على دفة القيادة.

أنا وحيد في مواجهة القدر، والقدر يصرف نظره عني.

حتى سِرت، مدينة مراهقتي ومهد ثورتي، تدير لي ظهرها. مضى الزمن الذي كانت فيه الساحات العامة والملاعب تغص بالناس الذين جاؤوا يهتفون باسمي، والأرصفة والمنابر تفيض بالحماسة والأعلام. كانوا يلوّحون بصوري ويتغنّون بمدائحي حتى تبحّ أصواتهم.

هنا، في هذه المدينة المتنكّرة لذكرياتها، قطعتُ عهداً بإخضاع القدر. لم تكن سوى مدينة متحفظة لا تعرف كيف تسوّق نفسها ولا كيف تثير الأحلام. على جاداتها يحلم الأغنياء بالكازينوهات التي تنعكس أضواؤها على الشاطئ الشمالي للمتوسط، وعلى جوانب الطرق لا يحلم الفقراء بشيء ما داموا مسلوبي الحقوق إلى هذا الحدّ. هوة سحيقة تفصل الطبقتين اللتين إن حصل وتصادفتا فلن تلتقيا حقاً. تعبر واحدتهما الأخرى كما تتداخل الأشباح، كل واحدة في عالمٍ موازٍ. أتذكّر المقاهي الرخيصة التي تفوح منها رائحة الفاقة والبول، والأسواق التي يغزوها الشحاذون والسارقون الذين يتضورون جوعاً، والأطفال ذوي الرؤوس المنتفخة بالندوب وآثار الحروق الذين يتدحرجون في الغبار وهم يضحكون كالممسوسين، بأنوفهم العفنة وعيونهم الرمداء التي يستوطنها الذباب. أرى أيضاً الطاعون المقزز الذي ينبعث من سواقٍ مكشوفة. أرى النساء من جديد بثياب مهلهلة يطلقن اللعنات تحت أروقة المنازل بأصوات أشدّ مأسويةً من نواح المآتم، والكلاب الشاردة التي تحرس المزابل مكشّرةً عن أنيابها لإبعاد المتضورين جوعاً، والعجائز الملتصقين بالجدران كفزّاعات مهملة، والأزقة الضيقة والمظلمة كأرواح مجنونة. هنا، في هذه المدينة، أمسكت بخناق رجل شرطة كان قد صفع والداً أمام أولاده فقط لأنه، بكل بساطة، كان يستدلّ على الطريق. لم أنسَ قط نظرة أولئك الفتية ولم أرَ ما يعادلها هواناً. كانت تلك المرحلة الذهبية للإقطاعيين الفاسدين، والبورجوازيين المسلمين الذين كانوا يتحدثون الإيطالية، وسياراتهم الفارهة التي لم تكن تتوقف حين كانوا يصدمون المارّة.

وقلت: "كفى!"

وصرخت: "الموت للملك!"

وأقمت الجمهورية وأحققت العدالة.

هنا بالذات، في هذه المدينة التي تتخلّى عن قيمها، دككتُ المقاهي الرديئة، وهدمت الأكواخ القذرة، ورفعت الأبنية أعلى من الأبراج، وبنيت المستشفيات وجهزتها تجهيزاً تاماً بأدوات فائقة الحداثة، وأقمت المخازن البراقة الجميلة كأحواض الأسماك، والساحات الرائعة ونوافير الماء بالفسيفساء، خططت الجادات أوسع من الميادين، وحوّلت الأراضي البور حدائق مزهرة كي يتّحد الحلم بفرحة العيش.

بفضل من؟

بفضلي أنا، وأنا فقط، أب الثورة، والابن المبارك لعشيرة الغوص القادم من صحرائه ليزرع الطمأنينة في القلوب والأفكار.

كنت موسى المنحدر من الجبل، والكتاب الأخضر في يدي بدل لوح الشرائع.

كان كل شيء يعلن نجاحي.

أنصار الوطنية العربية كانوا يمجّدونني بأعلى أصواتهم، قادة العالم الثالث كنت أعلفهم بيدي، رؤساء أفارقة يردِون نبع شفتيّ، المتدرّجون على طريق الثورة كانوا يقبّلون جبيني لينتشوا. جميع أبناء العالم الحرّ كانوا يطالبون بي.

من تراه لا يمجّد خالع الملوك وصيّاد النسور، بدوي فزّان المقدسة، الريّس بعمر ٢٧ عاماً؟

كنت فتياً، وسيماً ومعتداً بنفسي، خارقاً بحيث يكفيني أن ألتقط أيّ حجر لأجعل منه حجر الفلاسفة.

وماذا أرى الآن، أنا، مجترح العجائب الذي تسحر جاذبيته النساء؟

ماذا أرى بعد هذا الكمّ من الإنجازات العظيمة والتتويجات؟... مدينة مستباحة للنهب والتخريب على يد جيشٍ من الجنّ، فيللات بستائر مخلّعة، حدائق منكوبة، صروح مدنّسة وهياكل سيارات متفحّمة. خراب على مدّ البصر.

لقد محوا شعاراتي، وشوّهوا صوري التي كانت تزيّن الواجهات. شاهدت إحداها على عمود، ممزّقة وملطّخة بالمخلّفات البشرية.

هل هكذا يحب الشعب قائده؟

هل هذا الشعب أحبني بصدق أم كان مجرد مرآة تنعكس عليها نرجسيتي التي لا تعرف حدوداً؟

لا، هذا الشعب لا يمكنه أن يتماهى بي. أنا الذي أرى نفسي فيه، جاعلاً هتافاته كالمال في رصيدي. الآن بتّ أعلم: الشعب الليبي لا يعرف الشيء الكثير عن الحب. لقد كذب عليّ كما سخر مني الانتهازيون والعشيقات. كنت بالنسبة إليه "سمسم" الذي يسأله فتنفتح في وجهه الكنوز. كان يتملّقني من أجل أن أحمل له المشعل فيما هو يتخم على حسابي. لقد جعلت من رعاعٍ بؤساء أمةً سعيدة ومزدهرة، وانظر كيف يشكرونني.

كنت أخشى الخيانة في قصوري، فإذا بها تأخذني على حين غرّة في الضواحي.

المقدّم لم يكن على خطأ: الشعب هو القطيع. وبخلافي أنا، الذي كنت أعيش منعزلاً في غرفي المحصنة، كان طريد هو الرجل على الأرض. عاش بين الناس، تعلّم التعرف إليهم عن كثب. كان عليّ معاملة الشعب بالطريقة نفسها التي عاملت بها المنقلبين عليّ، أي أن أكون أكثر قسوةً وحذراً حياله.

المنقلبون عليّ خان بعضهم بعضاً، أما أنا فالشعب هو الذي خانني.

لو كان في إمكاني العودة إلى الوراء لتخلّصتُ من نصف الأمة. لحبست النصف في معسكرات لتدريبه على العمل الشاق، ولشنقت النصف الباقي على الطرق العامة ليكون عبرة. ألم يُقلق ستالين رقاد الصالحين والأشرار، الكبار والصغار؟ ومات على سريره مغموراً بالغار،

وشعبه بكاه حتى غرق في دموعه. متلازمة ستوكهولم هي الوصفة الوحيدة التي تلائم الأمم المارقة.

كيف تجرّؤوا على طعني في الظهر؟ ليبيا مدينةٌ لي بكل شيء. إن كانت تغرق في دخانها اليوم، فلأنها غير جديرة بطيبتي. تحوّل إذن إلى دخان، أيها الوطن الملعون. أحشاؤك عاقر، ومن جمرك الميت لن ينبعث أيّ طائر فينيق.

لكي تتجدّد الغابة يجب أن تُحرق، يقولون بحماقة.

هراء!

ثمّة غابات لا تنهض من نكبتها. تضحّي بنفسها كمن أعمى الجنون بصيرته، ولن ينبت عشب فوق رمادها. ستقول الأسطورة لاحقاً إنّ ليبيا غابة ولدت من شَعرٍ مخلّصٍ انبثق بدوره من حلمٍ سامٍ تحت سماء تحتفل بالعيد، مع بيرقٍ أخضر يخفق في الريح، وكتابٍ من اللون نفسه جمعت فيه كالآيات المقدسة، صلواتي التي رفعتها وتلك التي استجبت لها من أجل أن لا تعود بلادي، التي صارت ابنتي، عرضةً لصواعق الشياطين ولا لنار مهووسي إضرام الحرائق.

ليبيا هي برجُ سحري، وجبلُ أولمبي أنا.

هنا في مملكتي، حيث أنا الأوضع بين السلاطين، لا يزال الشجر واقفاً مذ هبّ متأهباً على صوت نفيري.

هنا، على أرض الشعراء والسيوف المعكوفة، كل برعم لا يتفتّح إلا لأنه يثق بي، وكل جدول يتفجّر من بين الحجارة يسعى إلى اللحاق بي، وكل فرخ عصفور يصدح في عشه يمجّدني.

ما الذي جرى كي يتحول أتباعي فجأةً إلى الهزء من أقوالي؟

يا للشقاء !

إني كالله الطيب، العالم الذي خلقته انقلب عليّ.

يتململ أبو بكر بقلق على مقعده، ينظر في المرآة تارةً ويلتفت وراءه تارةً أخرى. مضت علينا عشر دقائق ونحن نسير في أحياء مهجورة: محلات منهوبة، بيوت مشرّعة الأبواب على الجهات الأربع، وأسلاك شباك سياجات مخلعة تتلاطم في صمت، وهياكل سيارات متفحّمة تشهد على وحشية المخرّبين الذين اجتاحوا حتى الأشجار القليلة التي تظلل الطريق.

كأننا في مدينة ميتة.

على واجهة إحدى المؤسسات يرفرف علم أسود علامة حداد.

وداعاً يا سِرت. لا شيء فيكِ سيعود كما كان. أعيادك سيكون لها وقع خطب الرثاء في المآتم ولاحتفالاتك طعم الرماد. لكني أتوسّل إليك حين تُسألين ماذا فعلت برونقك ألاّ تُخفضي الرأس، أو توجّهي إصبع الاتهام إلى المتوحشين الذين يغتصبونك اليوم، وخصوصاً ألاّ تجيبي، لأنّ الرونق أنت بنفسك شوهتِ صورته.

إننا نسير بسرعةٍ كبيرة، ومع ذلك يعتريني شعور بأننا نراوح مكاننا ما دامت المشاهد في الخارج تبدو كأنها تكرّر نفسها. الأرصفة تكسوها شظايا الزجاج وقطع الحجارة، وبقع كبيرة سوداء من أثر الإطارات المحروقة، وحواجز تمّ اجتياحها بالقوة، ورجال أُعدموا مباشرةً قبل أن يلقى عليهم البنزين ويحرقوا. الجو عابق بالروائح المرعبة للجثث المحروقة كأنها الإشارات التي تسبق نهاية الأزمنة.

مذ غادرنا المدرسة لم نلتقِ إنساناً، فيما عدا بعض الكلاب الفارّة من المعارك والقطط التائهة. الأثر البشري الوحيد الذي صادفناه جثة جندي عُلّقت على عمود إنارة، سرواله مكوّم عند القدمين وعضوه الذكري مقطوع.

– ما هذه الغمامة البعيدة من الغبار خلفنا؟ سأل الفريق السائق.

سوّى السائق مرآته الخارجية:

– أظنهما مدفعا الشيلكا سيدي الفريق. هذه ولا شك فرقة العقيد معتصم.

ارتمى الفريق مجدداً على مقعده، مرتاحاً. وفي اللحظة التي استدار فيها ليرى وقع السرور عليّ لالتحاق ابني بنا أخيراً، دوّت طلقات نار. حاجز للثوار على الطريق. السيارات في المقدمة تحوّلت ناحية الجنوب، وتبعها الموكب وسط زئير الرشاشات. سيارة بيك أب انحرفت تحت وقع الرصاص، فانزلقت وسقطت مقدمتها في حفرة. أسرع ركابها إلى الخروج من قمرة القيادة وفتحوا النار لكي يؤمّنوا الحماية لأنفسهم، لكنهم قُتلوا على الفور.

توجّهنا ناحية الجنوب.

قدّم إليّ الفريق خوذةً وسترةً واقيةً من الرصاص:

– لقد بدأت المتاعب، غمغم منصور.

انفجارٌ هائل اضطرنا إلى التوقف. في الأمام مركبات مرمية يميناً وشمالاً. سيارة الدفع الرباعي الثانية لحرسي القريب تشتعل. المقدّم طريد أطلق بوق سيارته، ومدّ ذراعه إلى الخارج ليشير إلى السائقين بمتابعة السير.

مررنا أمام سيارة الدفع الرباعي المشتعلة. الباب الخلفي يرقد على الإسفلت وإلى جانبه جذع بشري مقطع الأطراف. داخل القمرة الركاب يحترقون على مقاعدهم، وقد قُتلوا من لحظتهم.

– الطريق مزروعة بالألغام، صاح الفريق.

– اللغم يخلّف حفرة في الطريق، قال منصور، في حين أن المركبة مسمّرة في مكانها، مما يعني أنها غارة جوية، طيارة من دون طيار ولا شك.

مركبة المقدّم طريد أصبحت في محاذاة السيارة التي تتقدم الموكب. أراه يحثّ السائق على مضاعفة السرعة، ثم ترك سيارتين تمرّان قبل أن يستعيد موقعه أمام سيارتي المصفحة.

وراءنا جزء من الموكب متوقّف بسبب التداخل أو بسبب أعطال ميكانيكية، والجزء الثاني يحاول التجاوز كيفما اتفق محاولاً اللحاق بنا.

منصور يضع يده على ركبتي ليشدّ من عزيمتي.

– إسحب قائمتك، أمرته. إيّاك أن تلمسني. لم أنسَ بعد موقفك ليلة أمس.

لم يسحب يده، وضغط بشيء من القوة على ركبتي:

– معمّر، يا أخي ومعلمي وقائدي، سنموت. فلماذا نفارق غاضبين بسبب أمور تافهة؟

– سنخرج من وكر الدبابير هذا، صاح به الفريق. الله معنا.

– لقد بدّل الله موقعه، أيها المسكين أبو بكر، تأوّه منصور. إنه الآن في الجانب الآخر. ولم يترك لنا سوى عيوننا للبكاء.

لكزته بكوعي في خاصرته لإجباره على السكوت:

– اصمت يا طائر النحس.

الفوضى وراءنا عارمة. بعض المركبات تابعت طريقها في عكس الاتجاه، بعضها الآخر تفرّق في الشوارع. أصوات انفجارات كانت تسمع متقطعة في البداية، ثم تتالت.

– هل نتعرض لهجوم أيها الفريق؟

– لا أظن يا ريّس.

– رجالنا مرتعبون، شرح منصور. يطلقون النار عشوائياً لأنهم لا يعرفون ما يجري. سيقتل بعضهم بعضاً من دون أن يدروا.

المقدّم، بدوره، عاين الفوضى التي تعمّ الوحدة الثانية من الموكب، فاستدار بسيارته محاولاً تنظيم الرتل، لكنه لاحظ أن الأمور تزداد سوءاً، فعاد ناحيتنا وأشار بيده إلى سائقنا أن يتبعه.

وصلنا إلى دوّار وانعطفنا في الاتجاه المعاكس لنعود أدراجنا إلى السيارة التي استهدفها القصف الجوي، سالكين جادّة قادتنا إلى ممرّ مهدّم. أشار الفريق إلى أن ثلث الموكب تاه في الطبيعة، استدرت لأتأكّد فلم أرَ سوى نحو عشرين مركبة تسير وراءنا في خطّ متعرّج.

– يجب إعادة النظام إلى كل هذه الفوضى أيها الفريق، وإلا وقعنا في ورطة.

– ثمة ثكنة في الجوار، أشار إلي.

– هيا بنا.

تجاوزنا مركبة المقدّم لنرشده إلى الثكنة المقصودة. لكن محيطها تحتله الميليشيات التي استقبلتنا برشاشات ١٢,٧ ملم وبالقذائف المضادة للمركبات. تراجعنا في فوضى عارمة. صوت صاخب يصمّ الآذان فوقنا، وما كدت ألمح مطاردتين تعبران السماء كشهابين حتى سقطت، باللحظة نفسها، قذيفتان على الرّتل. وراءنا بدأت المركبات تتفجر بالتتابع كمفرقعات صينية. ذراع محترقة ارتدّت عن الزجاج الأمامي لسيارتي. انحرف الموكب عن مساره. رجال غادروا مركباتهم وفرّوا طلباً للنجاة.

ركامٌ من جذوع الأشجار يسدّ الجادة، فسلكنا شارعاً موازياً.

– إنهم يستدرجوننا إلى كمين، قال منصور محذراً. فلنتراجع.

– إلى أين؟ سأل أبو بكر.

– إلى فندق مهاري.

– هذه مجازفة كبرى.

– تبقى أرحم من التقدم من دون تبصر نحو المجهول.

سيارة المقدّم طريد توقفت فجأةً.

فات الوقت. لم يعد في إمكانها تجنّب الحواجز المسننة المنتشرة على الطريق، فتمايلت فوقها. سيارتي اصطدمت بها. السائق والفريق ارتطما بعنف بأكياس الهواء. منصور فتح الباب وقفز إلى الأرض، وأردى مباشرةً عنصرين من الميليشيات جذبهما الاصطدام. حملت بندقية الكلاشنيكوف وترجّلت بدوري من السيارة.

السائق الذي لا يزال تحت وقع الصدمة يساعد الفريق على الخروج من المصيدة.

رحنا نركض على غير هدى. جنودي فتحوا النار عشوائياً. الحي يعجّ بالمتمردين. بتنا محاصرين. في الأزقة بدأت تسمع أصوات اشتباكات، وصيحات "الله أكبر" تتجاوب مع طلقات رشاشة لا تنقطع. الوحدة الثالثة من الموكب الذي يقوده ابني حاولت الاختراق لتلتحق بنا فأجبرتها قذائف المورتر على التوقف. حمم من النار والفولاذ مزّقت فرقي. منصور اختفى. المقدّم طريد يكسو وجهه الدم. أشار عليّ بأن أخفض رأسي وأحاذي الجدار للوصول إليه. الحماية اللصيقة انتظمت حولي. قريباً منا، عند الجهة الأخرى من الجدار، سيارة بيك أب تحمل مدفعاً ثقيلاً يمشّط الجوار، الغازات المنبعثة منها حبست الهواء، فتهيّجت حنجرتي. صوّب طريد على مطلق النار وحطّم جمجمته برصاصة. التففنا على البيك أب وفجّرناه برميتين من الرمانات اليدوية. رأيت السائق يتلوّى داخله والنيران تلتهمه.

إلى يسارنا نحو خمسين جندياً يصدّون فرقاً عديدة من المتمردين ويمنعونهم من الاقتراب. لمحت ابني معتصم يقود العمليات. لمحني هو بدوره، وأشار إليّ بيده أن أبقى حيث أنا. المتمردون حاولوا الالتفاف حولنا ليقطعوا علينا الطريق إلى أحد الأحياء السكنية. تبادل النيران يقوى وقذائف المورتر تستهدف موقعنا لدفعنا إلى الخروج منه. إحدى تلك القذائف سقطت على بعد نحو ثلاثين متراً من موقعنا. لم تنفجر. تمكّن معتصم من الزحف إلى جواري. كنت سعيداً برؤيته سالماً بحيث غفلت عن القناص المتمركز في الناحية المقابلة. أزيز رصاصة قرب أذني دفعني إلى الانبطاح أرضاً.

– يجب أن نخرج من هنا، قال ابني. لقد أرسلت فرقة إلى الأسفل لتشغل المهاجمين، لن تستطيع الصمود أكثر من ساعة، فيما المتمردون يتلقّون التعزيزات باستمرار. ستصلهم الدبابات قريباً وسيصبح القطاع كله مقفلاً. لننسحب في اتجاه الشمال. إنه المنفذ الوحيد المتبقي لنا.

القناص المتخفّي سمّرنا في أرضنا. لم يكن في إمكاننا رفع رؤوسنا. اصطحب معتصم حارسين معه، حاذى الجدار وتوغل داخل بستان. انفجرت رمانة، توقف بعدها إطلاق الرصاص من الناحية المقابلة. عاد معتصم ومعه حارس واحد. الآخر قتل.

أسرعنا إلى بناءٍ تفجّر قبل أن نبلغه، فتراجعنا تحت وهج القذائف. جنود يشيرون إلينا أن نتبعهم إلى إحدى الفيلات. الفريق التوى كاحله، فساعده حارس على الركض. المنزل يبعد نحو خمسين متراً، لكنه يبدو كأنه في الطرف الآخر من العالم. معتصم يدفعني أمامه. تمكّنا من بلوغ الفيللا بعدما فقدنا رجلين في الطريق. اكتشفَنا المتمردون. دفعوا بشاحنات مساندة مدججة بالسلاح نحو الموقع الذي تراجعنا إليه. الجنود على الشرفات، الذين حاولوا تأمين التغطية لنا، استُهدفوا بشتى أنواع الأسلحة. دخلنا إلى الفيللا التي كانت تتهالك تحت طوفان من القذائف. النوافذ محطّمة، الجدران يفتّتها رصاص من العيار الثقيل. بدأت القذائف تنهمر، محولةً ملجأنا إلى جحيم. عبق المكان بالغبار والدخان، وصيحات الجرحى تصل إليّ من الطابق. رجل يترنّح عند أعلى السلم، ذراعه مقطوعة ووجهه كالح. انهار وتدحرج على الدرج حتى بلغ الطبقة السفلية، على بعد خطوتين مني، تطلّع نحوي بتقطيبة من وجهه وأسلم الروح وعيناه جاحظتان.

المتمرّدون أصبحوا قريبين الآن، بعضهم تسلّقوا جدار التصوينة ويزحفون في الحديقة. حراسي يطلقون عليهم نيرانهم الرشاشة.

أبلغني معتصم أن البناء لن يصمد تحت قذائف المورتر ورشاشات المضادات الجوية، وأن علينا إخلاء المبنى.

– سأخرج لاستكشاف المكان، قال. رأيت رعياناً عند الجهة الأخرى. اصمدوا حتى عودتي.

أشار إلى جندي من الفرقة بأن يتبعه وخرج من باب غرفة الخدم، بعدها لن أراه ثانيةً. بعد دقائق عاد رجلان فقط من مجموعته.

– العقيد جرح، قال لي أحدهما.

– وهل تركته؟

– لم يكن في إمكاننا فعل شيء يا سيدي. فقدنا ستة رجال ونحن نحاول إجلاءه، لكن المتمردين أسروه حيّاً.

لم تعد لديّ رغبة في انتظار شيء. بدت لي الأشياء مشوهة وشاذة وبلا جدوى. ما الفارق بين أن تحيا أو أن تموت؟ ابني بين أيدي متوحشين. لا أجرؤ حتى على تخيّل المصير الذي يهيئونه له. غضب لا قرار له استبدّ بي. أدرك الفريق أنني في صدد التخلي عن كل شيء. عن القتال، عن المقاومة، عن الفرار. أمسكني من ذراعي وقادني وراءه نحو باب الخدم. باشرت بالركض من دون إدراك، غير مبالٍ بما يمكن أن يحدث لي. لم أكن أعي حتى الطلقات النارية التي كانت تلاحقنا.

لمحت أمامي ما تراءى لي أنها حقول. انقطع رباط خوذتي وسقطت أرضاً. لم ألتقطها. أعرف فقط أنني أركض، وأن صدري يشتعل، وأن قلبي على وشك الانفجار.

اعترضنا متمردون في حقل مهجور. خبأني حراسي وراء مرتفع من الأرض. الطلقات الرشاشة تتالى بلا انقطاع. أحد رجالي ارتمى على ظهره بعدما انقطعت يده. الرمانة اليدوية التي رماها على المتمردين اصطدمت بالسور، قبل أن ترتد وتنفجر وسط فرقتنا. بعض الشظايا أصابت الفريق. إنه يرقد بالقرب مني وقد انبقر بطنه وبرزت منه أحشاؤه. حاول أن يقول لي شيئاً لكنه لم يفلح. مال لون وجهه إلى الرمادي القاتم وتجمّد فمه. أعتقد أنه مات.

كلّ ما يبدأ على الأرض، سيأتي يوم وينتهي. هذه هي القاعدة.

"الحياة ليست سوى حلم يقرع لها الموت جرس التنبيه"، كان خالي يقول معزياً نفسه. "ما يهم ليس ما نحمله معنا بل ما نخلّفه وراءنا".

نهضت. خلعت سترتي الواقية من الرصاص ورميتها أرضاً، وتركت بندقيتي في موضعها وانطلقت راكضاً في الحقول وأنا أصلّي كي تتصيدني طلقات رشاشة وتقذف بي بعيداً، بعيداً جداً عن هذا العالم من المنحطين.

انفتحت أمامي كوّة كبيرة لأنبوب تصريف مياه الأمطار. لا أعرف لماذا اخترت الاختباء داخلها.

أشخاص اقتربوا بأقصى سرعة، مرّوا بالقرب من مخبئي وابتعدوا. يداي ترتجفان، وركبتاي تكادان تنهاران. الركض المتواصل استنفد قواي. تجمّعت على نفسي في العتمة وقد أصابني الدوار والغثيان. قلبي يخفق بقوة إلى درجة أني خشيت أن يرشد مطاردي إليّ. بي خجل من كوني تحوّلت إلى طريدة، أنا، معمّر القذافي، العدو اللدود للقوى العظمى. بي خجل من كوني هربت من وجه السوقيين وركضت عبر الحقول كالمجانين. بي خجل من كوني لجأت إلى الاختباء في أنبوب ريّ، أنا الذي كنت أرفع إصبعي على منبر الأمم المتحدة محذّراً الرؤساء والملوك.

استبدّت بي رغبة في البكاء، لكن كانت تعوزني الدموع. رغبت في أن أخرج إلى الهواء الطلق وأصيح: "أنا هنا". ومع ذلك لم أجرؤ على تحريك ساكن. شجاعتي الماضية تخلّت عني، وجاذبيتي القاتلة لم تعد سوى حكاية قديمة.

كنت أظنني مقدّراً لنهاية باهرة. حين كانت تراودني فكرة الموت أحياناً، كنت أراني راقداً على سرير ملكي، ومن حولي أفراد عائلتي وأتباعي الأوفياء. أتخيّل جثماني مسجّى في القصر الرئاسي وسط الأكاليل والأعلام، وملوك ومسؤولون رسميون توافدوا من أقطار العالم الأربعة يقفون دقائق طويلة خاشعين أمام جثماني الذي تغطيه الزهور، ونعشي على عربة مدفع تلفّها الرايات تجوب شوارع طرابلس يتبعها ملايين الناس الذين يغمرهم الحزن الشديد. في المقبرة التي ضاقت بالجموع المحتشدة، كنت أسمع الأئمة يتلون السُور المؤثرة لراحة نفسي، ومع التراب المنهال عليّ وسط تأوّهات شعبي، تتردّد مئات الطلقات المدفعية لكي تعلن للعالم كلّه أن معمّر، القائد الخالد، مات.

كنت مخطئاً.

لو أني أصغيت فقط إلى هوغو تشافيز، الذي عرض عليّ اللجوء، لكنت الآن في مكان ما في فنزويلا أستمتع بشيخوختي مطمئناً بدلاً من انتظار جلاّديّ في قعر مجرور. هل يعقل أني كنت غبيّاً إلى هذه الدرجة؟

بين الكبرياء والعقل نفور. حين نكون قد حكمنا شعوباً ننسى أنفسنا في عالم أحلامنا بعيداً عن أرض الواقع. لكن ماذا حكمنا حقاً؟ من أجل بلوغ ماذا؟ السلطة، في نهاية المطاف، احتقار: نوهم أنفسنا أننا نعرف ونكتشف أنّ كل ما نعرفه خطأ. وبدل إعادة النظر نصرّ بعنادٍ على *رؤية الأشياء كما نريدها أن تكون*.

نبذل ما بوسعنا في التعامل مع ما يعصى حتى على الخيال، ونتمسك بنزواته مقتنعين بأننا لو تخلّينا عنه فسننحدر إلى الجحيم. وها أنا، يا للمفارقة، أباشر الانحدار لأني لم أتخلّ عنه.

أنظر إلى النور في نهاية النفق مقطّع الأنفاس.

أرفض التفكير في ابني، وفي ما سألقاه أنا نفسي، وأنشر في رأسي الفراغ. مستحيل أن أحدّد موقعي وسط هذه الدوامة من الأحزان.

الدقائق تمرّ.

أسمع طلقات رشاشة تزداد حدّةً، أصوات القذائف تتجاوب مع أصوات القنابل اليدوية، ومركبات تروح وتجيء وسط صرير عجلاتها.

أنا وحيد.

وحيد في العالم.

تخلّت عني ملائكتي الحارسة وتخلّى عني المنجّمون الذين كانوا يتنبأون لي بآلاف الانتصارات لقاء بضعة أصفار تضاف إلى شيكاتهم.

أين هم أتباعي؟ أين نسائي المقاتلات؟ أين الذين كانوا يتبعونني من دون قيد ولا شرط والذين كانوا يلطمون أنفسهم أمام الناس من أجل أن يظهروا إلى العلن إخلاصهم...؟

تبخّروا، هكذا في لمحة بصر! تلاشوا في الطبيعة. ترى، هل وُجدوا حقاً؟ وشعبي الذي كان يساند قضيتي في ما مضى، ويدعمني في السرّاء والضرّاء، والذي أقسم على أن يتبعني إلى أيّ مكان يقودني "الصوت" إليه، ماذا تراه سيشيد فوق قبري؟

كان شعبي يكذب عليّ منذ البداية، منذ ذلك الصباح الذي أعلنت فيه، عبر راديو بنغازي، عن تحطيم قيوده واستعادة كرامته. لم يحبني شعبي يوماً. كلّ ما كان يفعله هو التزلّف لي من أجل أن يستحقّ سخائي على شاكلة أبناء بلاطي والمقربين مني وغانياتي.

كان عليّ أن أشك: الحاكم لا يمكن أن يكون له أصدقاء، ليس له سوى أعداء يتآمرون عليه خلسةً، وانتهازيين يضمّهم إلى صدره ليدفئهم كالأفاعي.

كان عليّ أن أصغي أيضاً إلى باسم تانوت، الشاعر الليبي الذي كنت قد تعرفت إليه منذ زمنٍ طويل في لندن أثناء الدورة التدريبية في صفوف القوات البريطانية. كان إنساناً حرّاً، رائعاً وصريحاً كضحكة طفل. كان يقيم في المنفى ولم يكن له من وطن سوى كتب قديمة باهتة وكدسة أوراق يدوّن عليها أشعاره الثورية.

عاد إلى البلاد في اليوم التالي للانقلاب واستمرت لقاءاتنا. في السنوات الأولى من حكمي كان يتردّد يومياً على منزلي. ثم أخذت زياراته تتباعد، فما عدت أراه. كان يرفض دعواتي الرسمية، ولا يجيب على رسائلي، فظننت أن مكروهاً أصابه وأطلقت حملة بحثٍ عنه. وفي ذات ليلة جاؤوني به. كان في هيئة مزرية لا توحي بحقيقة جوهره، كان خائر القوى، مترهّلاً كالثياب التي يرتديها، وكانت رائحة الكحول تفوح منه على بعد أميال، وما كان ينقصه سوى ارتجافة المدمنين. حين سألته إن كان يعاني من مشكلات، أجابني أن مشكلته هي أنا: "أنت تحبطني يا معمّر"، قال لي بلهجة متعالية من جراء سكره. "أنت تحطّم بيدك اليسرى ما بنيته باليمنى. لا تثق بهتافات شعبك. الشعب أغنية مغوية، وحماسته إدمان خبيث. إنها العيب المثالي للأنا المتمادية في عظمتها، وانتشاؤها سحابة مساء وضياعها المبرمج".

جرحتني كلماته إلى حدّ أني طردته بعيداً عن أنظاري. وعلى مدى أسابيع ظلّت انتقاداته هاجسي. ومن أجل التحرر منها قيّدت الشاعر في زنزانة.

بعد ثلاثة أيام على اعتقاله عثر عليه حراس السجن مشنوقاً في زنزانته، ورباعية من رباعيات عمر الخيام على الحائط في شكل وصية. الآن حين أفكّر في ما جرى، فيما هتافات

الأمس تحولت إلى صيحات عدائية في حلبة، أكتشف أنّ باسم تانوت كان الصديق الوحيد والأوحد الذي لم يقدّر لي أن أحظى به.

أشخاص آخرون تراودني ذكراهم. كانوا يعانون جميعاً من مشقة في السير، وهم يدوسون بلاط باحة مبنى الأشغال الشاقة حيث دفعت بهم. كنت ألمح في عيونهم جميعاً النظرة نفسها، نظرة من يحمل تذكرة سفر لرحلة بلا عودة. ذاك كان وزيراً وانتهى على حبل مشنقة. وهذا منشقّ سقط تحت التعذيب. جماعات تتعفّن في زنزاناتي لأنها لم تكن أهلاً لثقتي ولا لرحمتي. هؤلاء أصبحوا أعدائي. لم ينلهم إلا ما كانوا يستحقونه. لكن الشعب، شعبي أنا، تلك الكتلة التي ولدتها بالملاقط وأنا أعضّ على شفتيّ، والتي كنت أعظّمها في كل خطاب ألقيه، وأرفع من قدرها بين الأمم، أيّ شرير تملّكها حتى تنكّرت، بين ليلةٍ وضحاها، ومن دون أي إنذار، لكل ما قمت به من أجلها وقرّرت صلبي فوق القاعدة نفسها التي رفعتني عليها؟

لست آسفاً لأني كنت قاسياً في عقابي، فقد كان ذلك شرعياً وضرورياً.

القائد، ولو كان حاملاً رسالة إلهية، لا يحوّل خدّه الأيسر إن كان يتولّى رسمياً مسؤولية بلاده. بل على العكس، إن كان مصرّاً على القيام بواجباته على أفضل وجه، عليه أن يقطع اليد التي تمتدّ إليه، حتى لو جاءته الصفعة من والده نفسه. من هذه الناحية، أشعر براحة الضمير، وبالاكتفاء من الواجب الذي أنجزته. لقد قتلت عائلات وعذّبتها وأرعبتها وطاردتها، بلا هوادة، وأبدتها – لم يكن لديّ خيار آخر. لكني لم أسئ إلى الأبرياء. لم أعاقب سوى المذنبين والخونة والجواسيس. هؤلاء أنا على استعداد لمواجهتهم يوم الدينونة، وسأجبرهم على خفض رؤوسهم لأنهم مخطئون... والشعب، هل لديه الجرأة للنظر في عينيّ في حضرة الرب؟ ماذا عساه يجيب حين يسأله: "ماذا فعلت بمن اصطفيته؟"... ستعوزه الكلمات كما تعوزه شجاعة النظر في عينيّ. فليذهب الندم إلى الجحيم حين يولّد اللعنة. من يقضِ على حظوظه يكن قد قضى على كل صفح. ليبيا لن ترى نهاراً يضيء دربها بعد اليوم. لن تقصد أيّ مكان لتقطف الشموس، ما دام الليل سيكون قدرها.

فجأةً أسمع صوت قرقعة... بضعة أحجار تتدحرج في الحفرة، ومن ثم ظلٌّ يخطّط الهالة البيضاء عند نهاية النفق. تبيّنت قطعة سلاح أوّلاً، ومن ثمّ رأساً ينحني... "إنه هنا! لقد وجدته! إنه هنا، سيدي المقدّم..." الخطى الراكضة تقترب مجدداً. متمردون يقفزون إلى الحفرة، وفوهة البندقية موجّهة نحوي. لم يجرؤوا على الاقتراب وظلّوا على مسافة مني، متردّدين ومذهولين.

نزل شخص في لباس كوماندوس المظليين.

– أين هو؟

– هناك في الداخل، سيدي المقدّم. مقرفص في العمق، إلى اليسار.

رفع المقدّم قبعته، وتأملني بصمت.

– لا أصدّق عينيّ، هتف. هل هذا أنت حقاً، أم شبيهك؟

تقدّم خطوة، ثم أخرى، حذراً كمن يفكّك عبواتٍ في حقل ألغام. يخاف الاقتراب أكثر، يحني رأسه كمن أصيب بدهشةٍ عميقة. يلزمه وقت ليدرك أنه لم يكن يهذي.

– لا، هو بنفسه، صاح. إنه معمّر القذافي. ليس من أحد سواه ينتهي هذه النهاية: إنه جرذ... جرذ مجارير في قعر قناة.

من ورائه تتردّد كلمة: إنه القذافي... إنه القذافي...

فتح المقدّم ذراعيه:

– لا أفوّت هذا المشهد مقابل أيّ شيء في العالم. يا للصورة، يا للمعنويات! الرجل الذي كان يتوهّم نفسه ممتطياً الغيوم يُلقى القبض عليه في فخّ في قناة ريّ قديمة... إنها العودة إلى الينابيع أيها الأخ القائد. ولدت من روث جمل، وفي روثك أنت ستموت...

عمر، صاح بأحد رفاقه، أخرج هاتفك وصوّر هذا الإسدال الاستثنائي للستار.

خيالات أخذت تتكتّل عند طرف النفق، وهواتف جوالة تلمع لتخليد المشهد.

سمح المقدّم لبعض الفلاشات بنشر خطوطها اللامعة وسط النفق قبل أن يرفع يده لوضع حدّ لهذه الاحتفالية. أشار إليّ بإصبعه كي أتبعه:

– تعال إلى هنا أيها الأخ القائد. أنتظر بفارغ الصبر أن أعتصرك بين ذراعيّ حتى أُخرج بولك من فتحة مؤخرتك.

صدمتني فظاظته أكثر مما صدمني إلقاء القبض عليّ.

– تعال خذني، قلت متحدّياً.

– سنأتي، فلا تبالِ.

– قد يكون مسلّحاً، حذّر أحد المتمردين وهو يدفعني إلى الانبطاح.

– الأخ القائد ليس في حاجة إلى حمل سلاح، قال المقدّم، العناية الإلهية تحميه.

انطلقت ضحكات ساخرة ترحيباً بوقاحة الرئيس، وللحال ارتمت زمرةٌ عليّ، فشعرت بجسدي يتفتّت.

دفعوني إلى خارج القنال. رجال مسلّحون يتحلّقون حولي يلفّهم صمتٌ عميق. لا يحركون جامداً مذهولين لا يصدقون ما يرون. العدد الأكبر منهم كان يراني للمرة الأولى من هذه المسافة القريبة. إني متأكد لو أني تنحنحت لولّوا الأدبار لا يلوون على شيء. معظم الذين انقضّوا عليّ كانوا من الفتيان الذين بالكاد تتجاوز قاماتهم طول بنادقهم، والذين يثيرون الضحك في لباس المحاربين. بعضهم يشيح بنظره، غير قادر على احتمال نظرتي. وبعضهم الآخر لا يستطيع التحكم بالحركات اللاإرادية على وجوههم. زمر من المتمردين، ما إن سمعوا بخبر اعتقالي حتى بدأوا بالتوافد راكضين وهم يطلقون النار في الهواء إيذاناً ببدء العيد. "الله أكبر... الموت للطغاة... أسود مصراتة..." تجاوز عددهم المئة في خلال دقائق، وهم يتجمعون حولي ويتدافعون بالمرافق بقوة من أجل أن تتسنّى لهم رؤية هذا الحيوان الغريب من قرب.

دفعوني وجرّوني عبر الحقول. بصقوا عليّ، وهم يتوعّدونني بأسوأ أشكال العقاب. سقطت فردة نعل من قدمي، فتعثرت على الحجارة، أتقدّم تحت ضربات أعقاب البنادق...

أرعن أشعث الشعر انبرى أمامي ووجه إليّ صفعةً على الأثر.

ابتسمت له:

– إني أسامحك.

– أنا لا أسامحك أيها المجنون. ما من أحد ممّن حولك يسامحك.

– ماذا قال؟ سأل من كانوا في الخلف.

– إنه يسامحنا.

– يا له من وقح. لا يزال يعتبر نفسه الله الرحيم.

أفلتت الألسن من عقالها، تفجّرت التعليقات الساخرة والدعابات، ثم، كالنار في الهشيم، سرعان ما تحولت القهقهات التي انتشرت، تُضخّمها صيحات ودعوات إلى الموت، إلى صخبٍ فجنونٍ راعد.

ألف قرد مُعولٍ اجتاحني كسيلٍ من لعاب. لم أعد أرى سوى أفواه ترغي بالزبد وهي تطلق الصيحات، وعيون محتقنة بالدم، وأيدٍ تحاول سحقي. الرجال المكلّفون حمايتي جرى تجاوزهم، عبثاً حاولوا أن يمنعوا رفاقهم من لمسي وهم يدفعونهم عني بعنف. المقدّم لم يفتأ يصدر أوامره لجماعته بالتراجع، لكنه فقد السيطرة تماماً على الوضع. الويل لمن تزلّ به القدم وسط هذا الهيجان المسعور. حاولت السير مستقيماً، مرفوع الرأس، بحسب ما تقتضيه مرتبتي وهالتي، لكن النباتات الشائكة كانت كالجمر تحت قدمي الحافية مما دفعني إلى التنقل قفزاً. "هكذا، يا ابن العاهرة، إقفز كما لو أنك تلعب الحجلة[8]... ماذا دهاه؟ نعومة السجاد أنسته الأرض التي غذّته...؟ سأقطع خصيتيه وأحفظهما في الفورمول... ماذا ننتظر لنشنقه؟ يستحق أن نذبحه في ساقية... يجب أن نصبّ عليه البنزين ونحرقه... كلب... لوطي... ابن زنى قذر..." وسط هذا الهذيان الذي يحاصرني، لم أكن أرى سوى الحقد واللعنة. تداخلت الوجوه كأمواج قاتمة يكلّلها بياض العيون بالزبد الفتاك. نزعوا عني عمامتي، وألف يدٍ انهالت على رأسي. مزّقوا رقعةً من سروالي وألف إصبع قرصت أليتيّ وعبثت بالحميم من جسدي: انتزعوا شعرةً، ألف بصقة لطّختني، ألف حنجرة كريهة طالبت برأسي.

8 أو لعبة المربعات وهي لعبة للصغار يدفعون فيها بقدم واحدة حصاة مسطحة وسط مربعات يرسمونها بالطبشور على الأرض. (م)

أرفض تقبّل ما يحصل لي: إنه كابوس، كلّ ما فيه عبثي، لا حدود له، ومشين. كلّ شيء يبدو لي وهمياً. وهذه الأشداق الكريهة التي يسيل عليّ لعابها، هل هي بشرية؟ وهذه الأذرع الشبيهة بالمجسّات الماصّة التي تبدو خارجة من الظلمات، كيف تتمكن من الوصول إليّ وسط الغابة المتشابكة التي تلفّني؟ "أظهر نفسك يا فان غوغ. حباً بفنك، أظهر نفسك، لكي أستيقظ مذعوراً. أريد أن أستعيد فخامة قصوري الوثيرة، وجموع خدامي المفرطين في تذلّلهم، ونسائي المفتونات"... لم يظهر فان غوغ في أيّ مكان. أنا لا أحلم، وكابوسي حقيقي بقدر الدم الذي يلطّخ جبيني. لم أشعر بضربة عقب البندقية التي هوت على رأسي. على أيّ حال، لم أعد أشعر بشيء. نظرتي إلى ما يجري مشوّشة، يعتريني شعور غريب بأني لا أنفصل عن واقع إلا لأقع على آخر ليس لي فيه أدنى علامة استدلال. كما لو أن كمية الهيروئين التي تعاطيتها ليلة أمس بدأت أخيراً تفعل فعلها. إني في حالة استرفاع[9]، محمولاً بوحشية شعب لطالما أحببته ويستعدّ لتمزيقي بأيديه العارية.

9 ظاهرة ارتفاع أحد ما عن الأرض كما لو أنه متحرّر من قانون الجاذبية. (م)

الصيحات تعصف في داخلي كالإعصار. إني في حالة إغماء. حطام تتقاذفه الأمواج الثائرة. "لنربطه إلى شاحنة بيك أب ونجرّه على إسفلت الشوارع حتى يذوب لحمه على الطرقات". الضربات والإهانات تنهال عليّ. لم أعمد إلى اتّقائها. استسلمتُ إلى حالة من الذهول، وتركتُ نفسي تنساق إلى مصيرها، ورأسي مكلّلٌ بالشوك، والوجه يكسوه الدم كعيسى المسيح الذي ينوء تحت صليبه على درب دُفع زوراً إليها.

لست خائفاً.

عواطفي كلّت.

يعتريني انطباع غامض بأني أدور في المحيط الخارجي للأشياء، وأن مجمل حواسي قد فارقني.

ألقوا بي في صندوق شاحنة صغيرة كانت تجهد لشقّ ممرّ لها وسط الحشود الصاخبة. صدى أبواقها يتردّد في داخلي كأبواق الوحي. أنا لست من لحمٍ ودم، أنا التراجيديا، والأضحية البشرية نفسها. لا يعتريني شعور بالشفقة حيال هذا الشعب الذي يندفع إلى خسارته فيما هو يتوهّم أنه يلحق بالشاحنة التي تقودني نحو هيجانٍ آخر.

توقفت الشاحنة. عصابات متوحشة سدّت عليها الطريق وغمرتها. انقضّوا عليّ، مزّقوني ورموني علفاً للكلاب والأوغاد. مخالب تنتزع ثيابي ومعها جلدي. أحدهم أقحم حربةً في مؤخرتي. الإعدام من دون محاكمة انطلق، فقد بدأت الأمور تتّخذ منحىً جدّياً هذه المرة. يُعرّونني، يسلخون جلدي بحدّة، يلتهمونني حيّاً. لم أقاوم، تركت نفسي أُقطّع من دون أن أتأوّه أو ألتمس رحمةً من أحد، رابط الجأش ومعتداً بكبريائي كما يستسلم إلى قدره أسدٌ هرم يلقى به إلى الضباع. الاستباحة بلغت مداها. أسراب من العقبان تتنازع جسدي. "خذوه، أتركه لكم عن طيب خاطر. مزّقوه. إسلخوه. ستكون لكم أطرافي، وأعضائي، وأنسجتي، لكن عقلي سيخلد بعدكم. صيحاتكم تمجّدني، وعذابي هو خلاصي. وحدهم الأشخاص الاستثنائيون ينتهون هذه النهاية، وسط الجماهير". تضاعفت حدة الضربات الآن وقد أصبحتُ عارياً تماماً، أيدٍ تعبث بعانتي وتنتزع الشعر ملء قبضاتها، تهرس عضوي الذكري، وتدعك خصيتَيّ، وتخرمش ظهري، وتنتهك شرجي. لا أشعر بشيء، صرت خارج متناول الجلادين وشراهتهم إلى اللحم البشري. متحرّراً من كل السموم، لم يعد فيّ غضب ولا حقد. أنتمي إلى العقل الذي لا يشكّ، ولا يفاجئه شيء، ولا يمكنه أن ينجرّ لأن الغضب إقرارٌ بالضعف. وما هو هذا الإله الذي ينثني أمام حماقةٍ بشرية؟ تجاوزتُ مرحلة البشر، هذه الكائنات الزائلة المعجونة بالغرور والأخطاء. أدع لهم جسدي كصرّة يجمعون فيها جردة تعاساتهم الخاصة، ومتحرراً من الخوف والضغوط أتهيّأ للطيران نحو سماوات أبدية، وخطاياي التي غسلتها دمائي جرى التكفير عنها مع آخر أنفاسي، لأني أموت شهيداً لأحيا أسطورة. لم أعد ريّساً، أنا نبيّ، وسقوطي هو سمادي، سأنبت في الأزمنة الآتية أعلى من الجبال.

فجأةً، وسط الزوبعة، وفيما أنا أرفع بصري، لمحت السماء من فوق الأقنعة المقززة التي يسيل عليّ لعابها. لمحة بصر، بدا لي فيها أن البدر حلّ محلّ الشمس. وفي ارتجافةٍ أخيرة رفعت ما خطر في بالي من صلاة: "إلهي، اغفر لهم خطاياهم كما غفرتُها لهم، لأنهم لا يدرون ما يفعلون"...

انطلقت رصاصة قريباً جداً مني. إنها موجّهة إليّ. هي رصاصة الرحمة. فقد قرّر الرب أن يصغي إلى عذابي. أنا أعلم أنه لن يتخلّى عني. الله لا يتخلّى عمّن اصطفاهم: يصنع من نهايتهم بداية إيمانٍ جديد، ومن عذابهم اختبارَ سموٍّ وارتقاء...

سقطتُ ببطء على الأرض، متحرّراً من ارتباطاتي، متخففاً من مساوئي، متخلّصاً من تأنيب ضميري. أولد مجدداً من جروحي، ناصعاً كروحٍ خرجت حديثاً من رحم أمها. وشيئاً فشيئاً، انطفأت الصيحات، واحدةً إثر أخرى، ومن بعدها الوجوه فضوء النهار. إني أموت، لكن أثري باقٍ. لأني طبعت الضمائر، فأنا منذورٌ أن أسكن ذاكرة الشعوب، وأن أتزحلق على الأعمار التي تنطلق بأقصى سرعتها نحو اللانهاية، وأن أطبعها بذكراي حتى يُخلّدني التاريخ. سيتحسّرون عليّ، وسيهتفون لي في المدارس، وسيُحفر اسمي على رخام الأنصاب ويقدّس في المساجد، وأسطورتي ستلهم الشعراء وكتّاب المسارح، والرسامون سيخصّصون لي جداريات أرحب من الأفق. سيبجلونني ويندبونني أثناء توبتهم وارتدادهم، وسيكون لديّ قديسون بقدر ما لديّ من معاونين كما يليق بالقادة الاستثنائيين.

مهمتي انتهت. صرت في الناحية الأخرى من الأشياء والكائنات، هناك حيث ما من تدنيس، ما من احتقار، ما من نزاع يجعلني أؤمن بأن حبّ شعب هو عهدٌ راسخ لا ينقطع...

روحي تُقتلع من جسدي.

أطير فوق الغبار، أشاهد سيارة الإسعاف تشقّ طريقها وسط الجموع المزدحمة لتقلّني إلى لا أدري أيّ سيركٍ رعب، والمتمردين المحتفلين بطقسهم المقزّز، وآخرين يرفعون مزقاً من ثيابي الملطخة بالدم كجوائز تكريم. أرى أثر الإطارات على إسفلت الطريق، والأسلحة التي تلمع في الشمس، والرايات الخائنة التي تصفق في الريح، لكني لا أسمع صيحات الفرح ولا أصوات الرشاشات التي يطلق المحتفلون رصاصاتها نحو السماء.

أرى كلّ شيء، العرق على الوجوه المتوترة كما لو أنها متشنجة، النظرات المضطربة، الزبد الكثيف عند أطراف الشفاه، الجماهير التي تتبادل التهاني بحماسة، المتلصصين الذين كانوا يخلّدون بهواتفهم لحظة كل الانهيارات، لكني لا أسمع شيئاً، حتى النفس الكوني الذي يستنشقني.

هي أمي تدعوني عبر السراب. يصلني صوتها من عمق أعماق فزّان التي تضنيها الصحراء. أراها وهي تضغط صدغيها بيديها مغتاظةً من مشاغباتي كفتى مضطرب: "أنت لا تصغي إلا بأذن واحدة، تلك التي تنصت بها طوعاً إلى شياطينك، فيما الأخرى تصمّها عن صوت العقل"... ولم أفهم إلا في تلك اللحظة تحديداً، مباشرةً قبل أن تذوب روحي في دوّامة العدم، لماذا دخل هذا الشيطان فان غوغ، صاحب الأذن المجذومة، عنوةً في رقادي وجنوني.

لكن الأوان كان قد فات.

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

«أنا معمّر القذافي. هذا وحده من شأنه تعزيز الإيمان.
أنا الذي بواسطته يأتي الخلاص.
لا أخشى الأعاصير ولا حالات التمرد والعصيان.
تلمّسوا قلبي إذاً، تجدوه يضبط الحركة المحسوبة لتشتّت الخونة...
إنّ الله إلى جانبي!»

بهذه الكلمات كان القذافي يشدّ من عزيمته، بينما يقبع في قبو إحدى المدارس، في سِرت، في انتظار ابنه المعتصم لإنقاذه. أما وزير دفاعه، أبو بكر، الذي كان قبل أسبوع يتوعّد بمحو «عصابة المتوحشين»، فكان صامتاً صمت القبور، قلقاً على مصير ولديه. في حين كان منصور ضو في حالٍ مزرية وبالكاد يستطيع الوقوف على قدميه...

في «ليلة الريّس الأخيرة» يروي ياسمينة خضرا تفاصيل اليوم الأخير من حياة معمّر القذافي، الذي ظلّ حتى اللحظة الأخيرة لا يصدّق ما يجري. ولكن عندما تلطّخ جبينه بالدم، أدرك الأخ العقيد أنّ فان غوغ لن يأتي لنجدته...

قيل في الكتاب

«من أكثر الروايات إثارة» France 24

نبذة عن المؤلف

ياسمينة خضرا كاتب وروائي جزائري. هو مؤلف ثلاثية سنونوات كابول، الصدمة، صفارات إنذار بغداد. ترجمت رواياته إلى أكثر من 42 لغة. كتابه «ما يدين به النهار لليل»، الذي اختير كتاب العام 2008 بحسب مجلة Lire، اقتبسه للسينما ألكسندر أركادي عام 2012. وحاز كتابه «الصدمة» جوائز عدة، من بينها جائزة أصحاب المكتبات عام 2006 ونقله إلى السينما المخرج زياد دويري عام 2013.